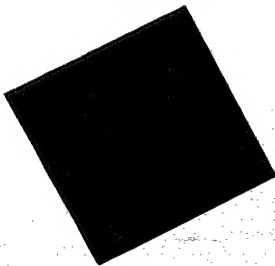
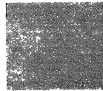


ميلان كونديرا



أرميات مضخة

نوفيل

ترجمة: معن عاقل

القصة القصيرة المالية (٢٠)



اپوستان، بنی زهیر المرو

میلان کوندیرا

غرامیا ت مضحکة

ترجمة: معن أحمد عافل



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٧

الضنوان الأصللي للكتاب :

MILAN KUNDERA
**RISIBLES.
AMOURS**

*Traduit du tchèue par
François Kérel*

NOUVELLE ÉDITION
REVUE PAR L'AUTEUR

غراميات مضحكة = *Risibles amours* / ميلان كونديرا ؛
ترجمة من اءمء عاقل . - دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٧ .
١٩٩ ص ؛ ٢٤ سم . - (القصة القصيرة العالمية ؛ ٢٠) .

١ - ٨٩١٨ كون غ ٢ - الضنوان ٢ - الضنوان الموائي
٤ - كونديرا ٥ - عاقل ٦ - السلسلة
مكتبة الأسد

الابداع القانوني : ع - ١٩٩٧/٦/١٦١

القصة القصيرة العالمية

« ٢٠ »

الامضاء

إلى أمي

جذر الفرع العميق

وإلى أختي منار

أمل الغد

الدكتور هافل بعد عشرين عاماً

١

يوم ذهب الدكتور هافل لكي يتعالج ، كانت عينا زوجته الجميلة مبتلئين بالدموع . إنها دموع الحنان على الأرجح (لأن هافل يتالم من مرض المارارة منذ بعض الوقت ولم تشاهده زوجته من قبل يتالم ابداً) لكن الصحيح أيضاً أن احتمال فراقه لمدة ثلاثة أسابيع يوقظ فيها عذابات الفيرة .

ما قولكم ؟ هل كانت هذه الممثلة الجميلة والفتية ، والتي هي محط الإعجاب ، تفار على سيد كهل لم يخرج من منزله منذ بضعة شهور دون أن يحمل في جيبه علبة الأقراص لكي يتقي الآلام الفنادرة ؟

لكن الامر كان هكذا ، ولم يكن أحد يفهمها ولا حتى الدكتور هافل الذي كان قد ظنّها هو أيضاً بحسب مظهرها ، منيعة ومستبدة ؛ ولم يزد ذلك إلا افتتاحاً ، عندما بدأ يعرفها معرفة أفضل وعندما اكتشف بساطتها وطبيعتها البيتية وخفرتها ؛ والغريب أنهما حتى عندما تزوجا ، لم تأخذ الممثلة للحظة بعين الاعتبار المزية التي تحظى بها من شبابها ؛ فقد كانت كالمفتونة بحبه وبالشهرة المأجونة المخيفة لزوجها الذي كان يبدو لها دوماً هارياً وعصياً على الإمساك به ، ومع أنه لم يدخر جهداً مع مرور الأيام لإقناعها بفارغ الصبر (وبمنتهى الإخلاص) بأنه ليس لها ولا يمكن أن يكون لها مثيل ، إلا أنها كانت تفار بشدة وألم ؛ وحده نبلها كان يفلح في الإحتفاظ تحت غطاءه بهذا الاحساس السيء الذي لم ينفك يغلي فيها بعنف .

كان هافل يعلم كل ذلك ، فيتأثر منه تأرة وينزعج تارة أخرى وهو متعب قليلاً فقط ، لكنه كان يبذل ما بوسعه لتهدئة عذابات زوجته لأنه يحبها . كان يحاول هذه المرة أيضاً مساعدتها فيبالغ في الآلمه وخطورة حالته لأنه يعلم أن الخوف الذي يعتري زوجته لدى التفرد في مرضه هو بالنسبة لها خوف مقور ومطمئن ، بينما تنخرها المخاوف التي تنتابها من عافيته (المليئة بالخيانة والحيل) ؛ لذلك كان يفتتح الحديث غالباً عن الدكتوراة فرانتيسكا التي ستهتم به أثناء علاجه ؛ لأن المثلة تعرفها جيداً وتطمئن لصورة مظهرها السمع تماماً والبعد حتماً عن أية صورة خظيعة .

عندما شاهد الدكتور هافل ، بعد أن أصبح في الحافلة ، العينين الدامعتين للمرأة الجميلة الواقعة على الرصيف ، اعتراه شعور بالراحة إن صح القول ، لأن حب زوجته ممتع بالطبع لكنه مرهق . ومع ذلك ، لم تكن أحواله في محطة الحمية المعدنية على ما يرام . فبعد أن يجزع الماء الذي كان عليه أن يروي به جسده ثلاث مرات في اليوم ، كانت تتناهب الآلام ويشعر بنفسه متعباً ، وحين يصادف نساء جميلات تحت القناطر ، يتبين برعب احساسه بشيخوته وعدم اشتهاه لهن . المرأة الوحيدة التي كان يسمح له برؤيتها حتى الضجر هي فرانتيسكا الطيبة التي تحقنه بالإبر وتقيس له ضغطه وتجس له بطنه وتخبره بكثرة عما يجري في المحطة المعدنية وعن طفليها ، ولا سيما عن ابنها الذي يشبهها على ما يبدو .

كان في هذه الحالة النفسية حين تلقى رسالة من زوجته ، آه يا للمصيبة ! هذه المرة لم يفاج نبل زوجته في الاحتفاظ بالغطاء مغلقاً على المكمن الذي يقلي بغيرتها ؛ فهي رسالة مليئة بالنواح والشكوى : لم تكن تريد لومه على شيء ، كما تقول ، لكنها لا تنام الليل ؛ كانت تعلم جيداً ، كما تقول ، أن حبها يضايقه ، وتتخيل بسهولة مقدار سعادته لأنه وجد سبيلاً للراحة بعيداً عنها ؛ أجل ، تدرك تماماً انها

ترعجه ، وتعلم أيضاً أنها أضعف من أن تغير حياته التي ما تزال مواكب
النساء تعبرها ؛ أجل ، تعلم ذلك ولا تحتج ، لكنها تبكي
ولا تستطيع النوم ...

حين أنهى هافل هذه القائمة الطويلة من النواحيات ، تذكر
السنوات الثلاث العائشة التي أرغم نفسه خلالها ، بصبر ، على أن يبدو
لزوجه كماجن تائب وزوج محب ؛ فحسب بضجر وبأس بالفين . دعك
الرسالة بغضب وألقاها في سلة المهملات .

٢

وشعر بالتحسن في اليوم التالي ؛ فلم تعد مرارته تؤله واعتزته
رغبة ضعيفة ، لكنها واضحة في العديد من النساء اللواتي شاهدتهن في
الصباح ينتزهن تحت القناطر . ولسوء الحظ ، طغى اكتشاف خطر
جداً على هذا التحسن المتواضع : هؤلاء النساء كن يعبرن بقربه دون
أدنى بادرة اهتمام ؛ أصبح يُعتبر بالنسبة لهن ضمن الموكب المرضي
لشاربي المياه المعدنية الشاحين ...

قالت له الدكتورة فرانتيسكا بعد أن فحصته في الصباح : « كما
تري ، حالتك أفضل . وعلى الأخص ، حافظ على الحمية بدقة . من
حسن الحظ أن المريضات اللواتي تصادفهن تحت القناطر هن أكبر سناً
وأسوأ صحة من أن يبعثن فيك الاضطراب ؛ وهذا أفضل بالنسبة لك ،
لأنك بحاجة للهدوء » .

أخذ هافل يدك قميصه تحت بنطاله ؛ وبينما يقوم بذلك ، كان
يقف امام المرأة الصغيرة المعلقة في الركن فوق المفصلة ، ويتملى وجهه
بمرارة . ثم قال بحزن كبير : « إنك مخطئة ، لاحظت أنه يوجد بين
العجائز اللواتي ينتزهن تحت القناطر بضغ فتيات جميلات ، لكنهن لم
يعرنني أي اهتمام .

— أجابت فرانتيسكا : « أصدق عن طيب خاطر كل ما تريده ، إلا هذا ! » اشاح الدكتور هافل بوجهه عن المشهد الحزين الذي يراه في المرأة ، وحدث في عيني الدكتورة الساذجتين والوفيتين ؛ شعر حيالها بالامتنان ، مع معرفته بأنها لم تقم إلا بلبداء رأيها في تقليد ، رأيها في الدور الذي اعتادت على رؤيته يؤديه (الدور الذي كانت تنتقده ، لكن دوماً بخنان) .

ثم طرق الباب . فتحته فرانتيسكا واطل منه رأس شاب ينحني باحترام . « آه هذا انت ! لقد نسيتك تماماً ! » ادخلت الشاب إلى حجرة المعالجة وشرحت لهافل : « منذ يومين يحاول رئيس تحرير الصحيفة المحلية لقاءك » .

بدأ الشاب يعتذر بتزلف عن إزعاج الدكتور هافل بلا مبرر ، واجتهد (للأسف ! بتعبير متوتر توتراً منفراً بعض الشيء) في استخدام لُبجة رقيقة : لا ينبغي للدكتور هافل أن يلوم الدكتورة لكشفها عن وجوده ، لأن الصحفي كان سيصل إلى اكتشاف ذلك في كل الأحوال ، ولو في حمام المياه المعدنية إذا اقتضى الأمر ؛ ولا ينبغي للدكتور هافل أيضاً أن يلوم الصحفي على وقاحته لأنها صفة ضرورية في مهنة الصحافة ، بلونها لن يتمكن من كسب معيشته . ثم اسهب في الكلام عن المجلة المصورة التي تنشرها المحطة مرة في كل شهر والتي يتضمن كل عدد منها مقابلة مع مريض مشهور يتعالج في الحمة ؛ فذكر على سبيل المثال العديد من الأسماء ، منها اسم عضو في الحكومة وآخر لمغنية محترفة وأيضاً اسم لاعب هوكي على الجليد .

قالت فرانتيسكا : « كما ترى ، لا تهتم نساء القناطر الجميلات بك لكنك بالتقابل تهتم الصحفيين » .

— قال هافل : إنه « انحطاط بشع » لكنه كان مسروراً بهذا الاهتمام فابتسم للصحفي ورفض عرضه بمواربة واضحة لدرجة تثير العطف

« فيما يخصني ، لست عضواً في الحكومة ولا لاعب هوكي ولا مغنية طبعاً .
من المؤكد أنني لا أريد التبخيس من قيمة أعمالي العلمية ، لكنها تهتم
الأخصائيين أكثر مما تهتم الجمهور العربيض .

— أجاب الشاب بصراحة متهورة : لكنك لست من أريد إجراء
حديث معه ؛ وحتى لم يخطر ذلك على بالي . إنها زوجتك . علمت أنها
ستزورك أثناء علاجك .

— قال الدكتور هافل بمنتهى البرود : أنت أدرى مني « ثم دنا من
المرأة وعالين من جديد وجهه الذي لم يكن يروق له . زور ياققة قمره ،
وهو صامت ، بينما استغرق الصحفي الشاب في ارتباك جعله يفقد
بسرعة وقاحته المهنية التي أعلن عنها بفخر ؛ فاعتذر للدكتورة وشعر
بالراحة حين أصبح خارجاً .

٣

كان الصحفي أرعن أكثر منه غيباً . لم يكن يقدر كثيراً مجلة
الحمة المعدنية ، إلا أنه كان يترتب عليه ، لأنه المحرر وحيد فيها ، بذل
ما بوسع له كي يملأ كل شهر صفحاتها الأربع والعشرين بالصور والكلمات،
الضرورية . كان يجد لذلك سبيلاً في الصيف لأن الحمة تعج بضيوف
مرعوقين ، فتأتي عدة فرق موسيقية لتقيم الحفلات في الهواء الطلق ،
والأخبار الصغيرة المثيرة متوفرة . أما أثناء الأشهر الماطرة ، فقد كانت
القلاحت والسام يجتاحون القناطر ، وكلن يجب اقتناص أية فرصة .
لذلك حين علم بالأمس أن الحمة تضم بين ضيوفها الآن زوج ممثلة
مشهورة ، الممثلة نفسها التي تمثل في الفيلم البوليسي الجديد الذي
ينجح منذ بضعة أسابيع في تسليية المستحمين المرضى ، تنفس الصعداء
وجدت في بحثه حالاً .

لكنه أصبح خجلاً الآن .

وفي الحقيقة ، وبما أنه كان يشك بنفسه دوماً ، فقد كان في حالة خضوع ذليل بالنسبة للناس الذين يعاشرهم ؛ وبحث خائفاً في نظراتهم عن تأكيد لحاله وقيمه . لذلك كان يحسب أنهم وجدوه مثيراً للرثاء وأحقق ومزعجاً . وهذه الفكرة تتبعه لا سيما وأن الرجل الذي أبدى رايه فيه كان جذاباً للوهلة الأولى . لذلك ، بعد أن طارده القلق ، تلقن للدكتورة في اليوم نفسه كي يسألها عن حقيقة زوج المثلة ، فعلم أن هذا السيد ليس عالماً كبيراً في الميدان الطبي وحسب ، بل شخصية مشهورة جداً حتى بدون ذلك ، فهل يعقل أن لا يكون الصحفي قد سمع بصيته أبداً ؟

رد الصحفي بالنفي فقالت له الدكتورة بدمائة : « طبعاً ، فانت ما زلت طفلاً . ومن حسن الحظ أنك لست إلا جاهلاً في الاختصاص الذي برع فيه هاقل بليتيار » .

عندما أدرك ، بعد أن طرح أسئلة أخرى على أشخاص آخرين ، أن الاختصاص الذي المحت إليه الدكتورة ليس إلا الشبقية ، الميدان الذي لا يوجد فيه نظير للدكتور هاقل في بلده على ما يبدو ، شعر بالخجل من اتهامه بالجاهل ومن تأكيده فوق ذلك لهذا الحكم بسبب عدم سماعه بصيت الدكتور هاقل . وبما أنه حلم دوماً بأن يصبح خبيراً مثل ذلك الرجل ، فقد كان مستاء تماماً لأنه تصرف أمامه بالتحديد ، أمام معلمه كاحق مقيت ، وواصل يتذكر ثلثته ومزاحه الأحق وقلة ذوقه ، ولم يكن بمقدوره إلا التسليم بخضوع بصحة الحكم الذي اعتقد أنه قراء في الصمت المستنكر للمعلم وفي نظراته الشاردة المحدقة في المرأة .

ليست الحمة التي حدثت فيها هذه القصة كبيرة ، وجميع الناس يتلاقون فيها عدة مرات في اليوم شاؤوا أم أبوا . لم يصعب إذاً على الصحفي الشاب أن يقابل سريعاً الرجل الذي يشغل تفكيره . كان ذلك نهاية بعد الظهور بينما حشد المصايين بالكبد يذهب ويجيء تحت القناطر .

كان الدكتور هافل يرتشف ماءً كريه الرائحة من طاسة من الخزف الصيني. اقترب منه الصحفي الشاب وبدأ يقدم له الاعتذارات بارتباك. لم يكن يحسب مطلقاً ، كما كان يدعي ، أن زوج السيدة هافل الممتلئة المشهورة ، هو نفسه الدكتور هافل ، وليس هافلاً آخر ؛ لأنه يوجد كثيرون باسم هافل في بوهيميا ، ومع الأسف لم يتبين الصحفي العلاقة بين زوج الممتلئة والطبيب المشهور الذي سمع طبعاً بصيته منذ زمن طويل ، ليس فقط كقطب في عالم الطب ، بل وأيضاً - كان بمقدوره على الأرجح السماح لنفسه بقول ذلك - بحسب الشائعات والطرائف المتنوعة .

لا يوجد أي سبب لإنكار أن الدكتور هافل بمزاجه الكئيب استمع إلى كلمات الشاب بسرور ، ولا سيما تلميحته إلى الشائعات والطرائف التي كان الدكتور هافل يعلم تماماً أنها تخضع ، مثل الإنسان نفسه ، لنواميس الشيخوخة والنسيان .

قال للشباب « لست مضطراً للاعتذار » وحين شاهد ارتباكها ، أمسكه برفق من ذراعه ودعاه للتسكع معه تحت القناطر . وأكد لكي يطمئنه « ذلك لا يستحق الذكر » لكنه كان في الوقت نفسه يركز بمجاملة على تلك الاعتذارات وكرر مراراً : « هكلنا إذا ، سمعت بصيتي ؟ » وفي كل مرة كان يقهقه بضحكة سعيدة .

وافق الصحفي بعصبية : « أجل ، لكنني لم أكن اتخيلك بتاتاً هكذا » .

- سأل الدكتور هافل باهتمام صادق : « وكيف كنت تتخيلني ؟ » وبينما كان الصحفي يفغم بأمر ما وهو لا يجد شيئاً يقوله ، استلرد هافل بكآبة : « أعلم أن شخصيات الروايات والأساطير أو الحكايات الطريفة صنعت ، على العكس منا ، من مادة غير معرضة للتلف مع الزمن . كلا ، لا أعني بذلك أن الأساطير والحكايات الطريفة خالدة ؛

فمن المؤكد أنها تهرم أيضاً ، وأن شخصياتها تهرم معها ؛ لكنها تهرم بحيث لا تغير ملامحها ولا تزيف ، بل تتلاشى وتمحي ببطء وتنتهي إلى التبدد في شفافية الفضاء . هكذا سيختفي بيبي موكو وهافل هلوي المجموعات ، وكذلك موييز وبلاس اثينا أو القديس فرانسوا ولسميز ، ولكن تخيل أن فرانسوا سيتلاشى ببطء مع العصافير الصغيرة الجائمة على كتفه ومع القلب الذي يتمسح بساقه ومع إضمامة أغصان الزيتون التي تمنحه ظله ، تخيل أن كل لوحته ستمحي معه وتتحول إلى زرقة مواسية معه ، أما أنا يا صديقي العزيز ، كما هي حالتي الآن ، عالم ، ومقتلع من الأسطورة ، سأختفي في خلفية مشهد طبيعي ذي ألوان سارخة بشراسة وتحت نظر شاب حيوي بطريقة متعكمة » .

كان خطاب هافل المسهب يحير الصحفي ويحمسه في آن معا ، وتنزه الرجلان أيضاً لفترة طويلة في الليل الذي بدأ يحل . عندما افترقا ، صرح هافل بأنه مل من طعام الحمية وأنه سيتناول بسرور عشاءً لذيذاً في اليوم التالي ؛ فسأل الصحفي ما إذا كان يقبل مشاركته فيه .
ووافق طبعاً .

٤

قال الدكتور هافل حين أصبح على الطاولة مقابل الصحفي وحين تسلم قائمة الطعام : « لا تخبر الدكتور بذلك ، فلدي فكرة مبتكرة عن الحمية : أتجنب بعناية كل الأطباق التي لا أشتهيها » ثم سأل الشاب عما يرغب بتناوله على سبيل المقبلات .

لم يكن المحرر معتاداً على تناول الكحول قبل الوجبات ، ولأنه لم يجد شيئاً آخر يقوله ، أجاب « فودكا » .

بدأ الدكتور هافل مستاء : « الفودكا ، إنها نفوح برائحة السروح الروسية !

— قال الشاب : هذا صحيح » ومنذ تلك اللحظة ضاع . كان يشبه متقدماً للشهادة الثانوية أمام لجنة الامتحان . لا يسعى ليقول ما يفكر به ، وليفعل ما يريد ، بل يجهد نفسه لإرضاء المتحنيين ؛ يجهد نفسه ليحجز أفكارهم ونزواتهم وأنواقهم ؛ ويتمنى أن يكون جديراً بهم . لم يكن ليسلم لأي سبب في العالم بأن عشاءاته كانت سيئة ومستدلة وأنه لم تكن لديه أية فكرة عن النبيذ الذي يجب عليه شربه مع لحم ما . وكان الدكتور هافل يعذبه عذاباً لا نهاية له باستشارته دائماً حول اختيار المقبلات والوجبة الأساسية والنبيذ واللجنة .

عندما تأكد الشاب الصحفي أن اللجنة الفاحصة وضعت له علامة سيئة في الامتحان الشفهي للتدقيق ، أراد تعويض هذه الخسارة بحماس بالغ فتفحص علانية أثناء الاستراحة بين المقبلات والوجبة الأساسية النساء الحاضرات في المطعم ، وحاول بعد ذلك البرهنة على اهتمامه وتجربته ببضعة تعليقات . أخفق من جديد . عندما قال بأن المرأة الشقراء الجالسة بعد طاولتين ستكون عشيقة ممتازة بالتأكيد ، سأله الدكتور هافل بلون تحامل عما جعله يقول ذلك . رد المحرر بإجابة غامضة ، وحين لاستفهم منه الدكتور عن تجاربه مع الشقراوات ، طعنه بكذبات لا تصدق وسكت بسرعة .

كان الدكتور هافل بالمقابل يشعر بالراحة والسعادة إزاء نظرات الصحفي المعجبة . طلب زجاجة نبيذ أحمر لكي ترافق اللحم ، وقام الشاب ، بعد أن انعشه الكحول ، بمسعى جديد كي يظهر نفسه جديراً بحظوة المعلم ؛ فتكلم بأسهاب عن فتاة صادفها مؤخراً والتي كان يغازلها منذ بضعة أسابيع على أمل النجاح . كان اعترافه غامضاً فترتب على الابتسامة المفتتحة التراجعية على وجهه ، بالتباسها المقصود ، الإفصاح عما لم يقله ، لكنها لم تكن تفصح إلا عن رغبة مقموعة بعناء . كان هافل يشعر تماماً بكل هذا ، وبعد أن استثير تعاطفه ، صار يسأل الصحفي عن شتى الصفات الجسدية للفتاة المذكورة ، لكي يتيح له التركيز على الموضوع الذي يؤثره والتكلم بمنتهى الحرية . لكن الشاب فشل هذه

المرّة أيضاً : كانت أجاباته غامضة على نحو ملفت للنظر ؛ فلم يستطع أن يصف بشيء من الدقة العمارة العامة لجسد الفتاة ولا المظاهر المختلفة لشكلها الخارجي ، وبدرجة أقل أيضاً طبعها . إذا ، انتهى الدكتور هافل إلى أن يجعل من نفسه موضوع الحديث بكامله ، ومستسلماً شيئاً فشيئاً لنشوة الفرح في الأمسية ولنشوة النبيذ ، صار يفرض على الصحفي مسامرة روحية مؤلفة من ذكرياته الشخصية ونوادره وتكاته .

راح الصحفي يشرب نبيذه ببطء ويصفي ، وصارت تعثره أثناء ذلك مشاعر متناقضة : كان قبل كل شيء بائساً : فهو يشعر بنفسه تافها وواحمًا ويبدو بمظهر المبتديء المتردد أمام معلم قدير ، ويحس بالخجل من التكلم ؛ لكنه كان سعيداً في الوقت نفسه : فهو يشعر بالزهو لأن المعلم يجلس مقابله ويتحدث معه كرفيق ويوبوح له بكل أنواع الملاحظات النفيسة جداً .

حين أخذ الدكتور هافل يستفيض ، رغب الشاب في التكلم بدوره ، والإدلاء بدلوه وموافقه على رأيه والظهور كرفيق أنيس ؛ لذلك انزلق من جديد إلى الحديث عن صديقه وطلب من هافل بسرية فيما إذا كان يوافق على لقائهما في اليوم التالي لكي يقول له رأيه فيها على ضوء تجربته ؛ وبعبارة أخرى (أجل ، إنها الكلمة التي تفوه بها في اندفاعه) لكي يصادق عليها .

من أين جاءت هذه الفكرة ؟ ألم تولد فجأة من الثمل والرغبة المحمومة بقول شيء ما ؟

ومهما بلغت عقويتها ، فقد كان الصحفي يرجو منها ثلاث فوائد :

— قد يخلق تأمر أهل الخبرة الشائع والسري (التصديق) بينه وبين المعلم علاقة سرية ، وقد توطد الرفقة والتواطؤ الذي كان الصحفي يصبو إليه .

— وإذا أعطى المعلم موافقته (كما كان الشاب يأمل ؛ لأن الفتاة المذكورة استهوته بشدة) فسيكون ذلك اقاراراً للشباب ولاختياره وذوقه ، وسيكون هكذا قد ارتقى من مرتبة مبتديء إلى مرتبة صاحب في نظر المعلم ، وبذلك سيغدو مهما بحسب رأيه الخاص .

— وأخيراً : كانت الفتاة نفسها ستحصل على مزيد من القيمة في نظر الشاب وقد تتحول المتعة التي سيجنيها من حضوره ، من متعة وهمية إلى متعة واقعية (لأن الشاب كان يشعر أحياناً أن العالم الذي يعيش فيه هو بالنسبة له عبارة عن متاهة من المعايير التي لم يكن معناها يظهر له إلا بطريقة مبهمة جداً والتي لا تفلح بالتحول من معايير ظاهرة إلى معايير واقعية إلا بعد اختبارها) .

٥

حين استيقظ الدكتور عاقل في اليوم التالي ، شعر أن مرارته تؤلمه قليلاً بسبب عشاء الأمس ، وحين نظر إلى ساعته ، تبين له أن عليه أن يكون في جلسة المعالجة بالماء خلال نصف ساعة ، وأن عليه بالتالي الصجلة ، مع أن الصجلة هي إحدى الأمور التي يبغضها كثيراً في العالم ، وبينما كان يرتب شعره ، شاهد في المراة وجهاً شعر أنه منفر . كان النهار يبدأ بداية سيئة .

لم يكن لديه وقت حتى لتناول افطاره (هنا أيضاً بدا له علامة سيئة ، لأنه كان يحرص على عاداته اليومية المنتظمة) وتوجه بسرعة إلى منشأة الحمة المعدنية . حين وصل إليها ، دلف إلى رواق طويل ، طرق باباً فظهرت شقراء جميلة ترتدي قميصاً أبيض ،لفتت نظره بهيئة عابسة إلى تأخره ودعته للدخول . بدأ هافل يخلع ملابسه في حجرة الحمام خلف حاجز . سمع بعد برهة « أما انتهيت ؟ » كان صوت المسددة الذي يرداد فظاظته يهين الدكتور هافل ويحرشه على الثأر (يا للأسف ! لم يكن الدكتور هافل يعرف منذ سنوات إلا شكلاً

وحيدا للثأر من النساء !) عندئذ خلع سرواله وقلص بطنه ، ثم شد ظهره وأراد الخروج من حجرة الحمام ، لكنه اشمأز بعد ذلك من هذا الجهد المهدد لكرامته الذي كان يبدو له مثيراً للسخرية كثيراً عند شخص آخر ، فترك بطنه يتهدل براحة وتوجه نحو المفطس الكبير بلا مبالاة كان يرتئها وحدها خليفة به ، وغمر نفسه بالماء الفاتر .

كانت المسدة غير المكتثرة كلياً بصدرة وبطنه تفتح الصنابير على لوحة القيادة ، وحين تمدد الدكتور هافل في قاع المفطس أمسكت ساقه اليمنى وركزت تحت الماء ، مقابل باطن قدمه ، فوهة الأنبوب التي كان ينبجس منها تدفق شديد . حرك الدكتور هافل ، الذي كان مدغغاً ، ساقه فذكرته المسدة بالنظام .

لعله لم يكن من العسير طبعاً لإرغام الشقراء على التخلي عن فظاظتها القاسية بمزحة أو ثرثرة أو موضوع لطيف ، لكن هافل كان منزعجاً جداً ومهاناً . كان يقول لنفسه بأنها تستحق العقاب ولم يكن يريد تسهيل الأمور عليها . وعندما بدأت تركز الأنبوب تحت أسفل بطنه بينما هو يستر أعضائه التناسلية بيديه ، لأنه يخشى التأذي من الدفق العنيف ، سألها عما ستقوم به في ذلك المساء . سألته دون أن تنظر إليه من سبب اهتمامه ببرنامجه . فأوضح لها بأنه يسكن وحيداً في حجرة ذات سرير واحد وأنه يَتمنى مجيئها لمشاركته فيها . فقالت له الشقراء : « أعتقد أنك أخطأت العنوان وسمرت » أن ينقلب على بطنه .

إذا ، كان الدكتور هافل ممتدداً على بطنه في قاع المفطس ويرفع ذقنه لكي يتنفس . شعر بالدفق العنيف يدغدغ فخذه وهو مسرور من التبرة الحازمة التي خاطب بها المسدة . لأن الدكتور هافل عاقب دوماً النساء المتمردات والمتعجرات أو المدلات ، باستدراجهن بفنور ودون أي حنان وبصمت تقريباً ، إلى أريكته التي يصرفهن عنها بمنتهى الفتور أيضاً . احتاج لبرهة كي يدرك أنه خاطب المسدة بفنور ملائم ودون أي حنان ، إلا أنه لم يستدرجها وعلى الأرجح قد لا يستدرجها إلى

أريكته . أدرك أنه مرفوض وهذه إهانة جديدة . كان سعيداً لأنه الفى نفسه وحيداً في حجرة الحمام متدنئاً بالمنشفة .

خرج بعد ذلك مسرعاً من المنشأة وتوجه نحو لوحة اعلانات سينما لوتان حيث كانت تعرض ثلاث صور إعلانية ، إحداها صورة زوجته التي تبدو فيها مدمورة وجائبة أمام جثة . راح الدكتور هافل يتأمل وجهها الرقيق الذي شوهه الالتهع ، فشعر بحب غامر وحنين جامح . ظل فترة مديدة دون أن يفلح في تحويل نظره عن الواجهة الزجاجة ، ثم قرر المضي إلى فرنسيسكا .

٦

قال حين أذنت الدكتورة لمريضها بالانصراف ودعته للدخول إلى حجرة المعالجة : « اطلبني القسم الخارجي من فضلك ، يجب أن أكرم زوجتي » .

« هل حدث مكروه ؟ »

— قال هافل : أجل ، أشعر بالوحدة ! »

تأملته فرنسيسكا بارتياح ، أدارت قرص الهاتف على رقم القسم الخارجي ورددت الرقم الذي يمليه هافل عليها . ثم أغلقت السماعة وقالت : « أنت تشعر بالوحدة ؟ »

— قال هافل يتبرم : ولم لا ؟ إنك تشبهين زوجتي . تجديني رجلاً توقف عن الحياة منذ زمن طويل . إنني بسيط وأعزل وحزين . لقد تقدمت في العمر . ويمكنني أن أصارحك بأن هذا قلما يكون ممتعاً .

— أجابته الدكتورة : كان يجب أن يكون لك أطفال . ولو حدث ذلك لما فكرت كثيراً بنفسك . أنا أيضاً تقدمت في العمر ولكنني لا أفكر

بذلك . عندما ارى ابني يكر : اتساءل كيف سيبدو حين يفدو رجلا
ولا انوح على السنين التي انقضت . تخيل انه قال لي الباردة : بماذا
يفيد الاطباء مادام الناس سيموتون لا محالة ؟ ما رأيك بذلك ؟ وبماذا
كنت ستجيبه على هذا السؤال ؟

لحسن الحظ ، لم تسنح الفرصة لهافل كي يجيب لان الالهاف رن .
رفع السماعه وحين سمع صوت زوجته ، اخبرها في الحال بانه حزين
ولا يوجد احد يتكلم معه ولا احد يرغب برؤيته ، وانه لا يحتمل البقاء
وحيدا هنا .

تكلم صوت خافت في السماعه ، حذر في البداية ، ومشلول ومتلعثم
تقريبا ، لكنه انتهى إلى الخضوع قليلا بتأثير كلمات الزوج .

كان هافل يقول في الميكروفون : « تعالي إلى هنا من فضلك ،
تعالي لمرافقتي هنا حالما تستطيعين ! » وكان يسمع زوجته تجيبه
بانه يسعدها المجيء لكن لديها عرض في كل الايام تقريبا .

قال هافل « في كل الايام تقريبا وليس في كل الايام » وسمع
زوجته تجيبه بانها حصلت على إجازة في اليوم التالي ، لكنها لا تعلم
فيما إذا كان الأمر يستحق المجيء لنهار واحد .

رد هافل بسرعة : « كيف يمكنك قول هذا ؟ انت لا تعلمين إذا
قيمة نهار في الحياة القصيرة ؟

— سال الصوت الخفيض في السماعه : ولست عاتبا علي حقا ؟

— لماذا سأعتب عليك ؟

— بسبب الرسالة ، انت تعاني الالام وأنا ازعجك برسالة حمقاء
من امرأة غيورة »

غمر الدكتور هافل مكبر الصوت بموجة حنان وأعلنت زوجته
(بصوت أصبح الآن متأثراً تماماً) أنها ستأتي في اليوم التالي .

قالت فرنسيسكا حين أقفل هافل السماعه : « رغم ذلك أحسبك
فلديك كل شيء . عشيقات بقدر ما تريد وايضا أسرة جميلة » .

كان هافل ينظر إلى صديقه التي تتكلم بحسد ، لكنها على
الأرجح أسعد من أن تستطيع إضمار الحسد لأي إنسان ، وشعر
بالشفقة عليها لأنه يعلم أن الفرح الذي يهبه الأطفال لا يمكن استبداله
بأفراح أخرى ، وأن فرحا يرزح تحت وطأة واجب الطول مكان
أفراح أخرى هو فرح سريع الزوال .

ذهب بعد ذلك إلى الغداء ، وأوى إلى القيلولة بعد الغداء ، وعند
الاستيقاظ تذكر أن الصحفي الشاب ينتظره في المقهى لكي يعرفه على
صديقه . ارتدى ملابسه وخرج . أثناء نزوله درج منزل الشفاء ،
لمح في البهو عند حجرة الملابس ، امرأة طويلة تشبه فرس السباق
الأصيلة . آه . لم يكن ينقص إلا هذا ! لأن أولئك النسوة بالتحديد
هن اللواتي يولهن الدكتور هافل دوما . ناولت سيدة حجرة الملابس
المعطف إلى المرأة الطويلة فتقدم هافل لمساعدتها على ارتداء الكم .
شكرته المرأة الشبيهة بالفرس فتور فقالت لها هافل : « هل يمكنني
تقديم خدمة أخرى لك يا سيدتي ؟ » وابتسم لها ، لكنها أجابت بالنفي
دون أن تبتسم وخرجت على عجل .

شعر هافل بالإهانة من ذلك فتوجه نحو المقهى وهو يحس بحالة
من العزلة المتجددة .

٧

كلن الصحفي جالسا منذ فترة طويلة إلى جانب صديقه (وقد
اختار مكانا يستطيع منه رؤية المدخل) ولم يفلح في التركيز على الحديث

الذي كان يفسح بينهما عادة بفرح وبلا كلل . كان يشعر بالتهيب بسبب هائل . حاول للمرة الاولى منذ تعرفه على صديقه تفحصها بعين ناقدة ريثما راحت تتكلم (من حسن الحظ أنها لم تكف للحظة عن الكلام بحيث لم يفتن احد لاضطراب الشاب) اكتشف في جمالها عدة عيوب صغيرة ؛ فأقلقته ، لكنه اطمأن في الحال إلى فكرة أن هذه القائمة من العيوب كانت تجعل جمالها أكثر جاذبية وأن وجودها برمتة يغمره بمنتهى اللطف بسبب تلك العيوب .

لأن الشاب كان يحب كثيراً صديقه ،

لكنه إذا كان يحبها كثيراً ، فلماذا استسلم إذا لفكرة التصديق عليها من قبل طبيب داعر ، وهي فكرة مهينة بالنسبة لها ؟ وحتى إذا متحناه الظروف المخففة ، مفترضين على سبيل المثال أن ذلك ليس إلا امرأة عادياً بالنسبة له ، فكيف يحدث أن تقلقه مجرد لعبة بسيطة إلى هذه الدرجة ؟

ليست لعبة . لم يكن الشاب يعلم حقاً ما يجب عليه تصوره من صديقه ، وقد كان عاجزاً حقاً عن تحديد سحرها وجمالها .

وهل كان إذاً ساذجاً وغراً إلى درجة أنه لم يكن يستطيع تمييز المرأة الجميلة من القبيحة ؟

كلا ، لم يكن محروماً من التجربة في هذا المجال ، فقد تعرف آزفاً إلى العديد من النساء وخاض معهن كل أنواع المغامرات العاطفية ، لكنه كان يولي نفسه يوماً اهتماماً فائقاً أكثر من انشغاله بهن . لتأمل على سبيل المثال هذا الحدث البسيط الملفت للانتباه : كان يتذكر تلمع لباسه حين خرج مع فلانة ، ويعلم أنه في يوم كذا وكذا ارتدى بنطلاناً فضفاضاً بوانه استاء من ذلك ، ويعلم أنه ارتدى في يوم آخر كنزة صوفية بيضاء بلما فيها بمظهر رياضي رشيق ، لكنه لم يكن يتذكر مطلقاً لباس صديقاته .

اجل ، هذا ملفت للانتباه فعلا : فقد كان يكف عند مفارقه القصرة على دراسات طويلة ودقيقة لمظهره الشخصي ، بينما لم يكن لديه إلا حس عام وسطحى حيال من يواجهه من الجنس الاثوي ؛ لانه كان يهتم بالصورة التي يظهرها لرفيقته اكثر من الصورة التي تبديها له رفيقته . ذلك لا يعني انه ليس مهما بالنسبة له ان تكون الفتاة التي تخرج معه جميلة او غير جميلة . لان عيون الآخرين تشاهدهما وتحكم عليهما معا (عيون الناس) بالاضافة الى ان عيني رفيقته تشاهده ، وكان يحرص كثيرا على ما يرضي الآخرين من صديقه ، لانه يعلم انهم سيحكمون من شخصية صديقه على اختياره وذوقه ومستواه ، اي عليه نفسه . لكن لان الامر يتعلق تماما بحكم الآخرين ، لم يتجرا على الاعتماد كثيرا على عينيه ؛ بل على العكس ، راضي حتى ذلك الحين بان يصيح السمع إلى صوت الراي العام وبطابقه معها .

لكن هل يقارن صوت الراي العام بصوت معلم وخبير ؟ كان يتطلع بفارغ الصبر إلى المدخل وعندما شاهد اخيرا خيال الدكتور هافل من خلال الباب المزجج ، تصنع المفاجأة وقل لصديقه ان رجلا شهرا يريد إجراء مقابلة معه عما قريب لأجل مجته يدخل بمحض الصدفة إلى المقهى . توجه للملاقة الدكتور هافل وقاده إلى طاولته . لم تلبث الفتاة بعد ان قطعت حديثها بضعة لحظات من التعارف ان استأنفت الموضوع بشرثرة مستفيضة .

أخذ الدكتور هافل الذي صرفته منذ عشر دقائق المرأة الشبيهة بحصان السبق يتأمل مليا المراهقة المفردة وهو ما يزال مسترسلا في مزاجه الكئيب . لم تكن المراهقة جميلة جدا لكنها لطيفة جدا ولم يكن نمة أدنى شك في ان الدكتور هافل (الذي قلنا إنه كالوت ، ويأخذ أي شيء) سيأخذها لدى أدنى إيماءة عن طيب خاطر . وفي الحقيقة كان لديها العديد من القسمات المتميزة بفوضها الجمالي : إذ تغطي جذر انفها قطرات دقيقة من النمش الذهبي ، يمكن اعتبارها عاهة على بياض الجلد . كما يمكن اعتبارها أيضا جوهرة طبيعية على ذلك البياض؛

كانت ممشوقة إلى ابعاد حد وهو ما يمكن تفسيره كعيب بالنسبة للأبعاد
الأنثوية المثالية ، إلا أنه يمكن تفسيره ، بالمثل ، كرشاقة لطيفة للطفولة
الدائمة في المرأة ؛ كانت ثرثرة جداً وهو ما يمكن اعتباره عادة مستهجنة،
لكن يمكن اعتباره أيضاً تصرفاً موفقاً يتيح لرفيقها الاسترسال في تأملاته
الخاصة دون أن يتعرض لخطر المفاجأة .

راح الصخفي يراقب خفية وبقلق وجه الطبيب ، ولأن هذا الوجه
كان يبدو له متاملاً بتجهم (وهو ما لم يكن بشير خير) نادى النادل وطلب
ثلاثة أقفاص كونياك . احتجت الشابة مدعية أنها لا تشرب ، ثم اسهبت
في إقناع نفسها بأنه يمكنها وعليها أن تشرب ، وادرك الدكتور هافل أن
هذه المخلوقة الغامضة جمالياً التي تكشف في تدفق كلماتها كل بساطة
روحها ، ستكون على الأرجح إخفاقة الثالث في هذا النهار ، إذا ما قام
بمحاولة ، لأن الدكتور هافل الذي كان قديماً ملكاً كالوت لم يعد
كما كان .

حمل النادل بعد ذلك الكونياك ، فرفعوا جميعاً أقداحهم استعداداً
لشرب النخب ، وحدق الدكتور هافل في عيني الفتاة الزرقاوين ثم
يحدق في عيني معاليتين لشخص لا يهمه أمره . وعندما أسر هاتين
العينين كما يأسر الأعداء ، بادلهما العداوة ولم يشاهد أمامه فجأة إلا
مخلوقة غدت سمها الجمالية واضحة تماماً : مراهقة هزيلة ، ذات
وجه ملطخ بقذارة الشمس ، وثرثرة على نحو غير محتمل .

مع أن هذا التحول جلب السرور للدكتور هافل مثلما جلبت له
السرور نظرة الشاب المركزة عليه باستفهام قلق ، إلا أن تلك الأفراح
كانت في غاية الضالة مقابل مرارة الهلوية التي تتكشف فيه . حدث
نفسه بأنه قد يكون من الخطأ إطالة هذا اللقاء الذي لن يستطيع أن
يجلب له أي سرور ؛ افتتح الكلام إذاً وألقى أمام الشاب وصديقه عدة
نكات لطيفة وعبر عن سعادته لأن الفرصة سحبت له بقضاء إحدى أكثر
اللحظات متعة معهم، ثم أعلن أن هناك من ينتظره وأستاذن بالانصراف .

عندما وصل الدكتور هافل إلى الباب المزجج ، ضرب الشاب جبهته
وادعى أنه نسي تعلم الاتفاق على موعد من أجل إجراء المقابلة . خرج
مستعجلاً ولحق بهافل في الطريق . فسأله : « إذا ، كيف وجدتها ؟ »
نظر الدكتور هافل ملياً في عيني الشاب الذي كان إعجابه المتلفه
يشر العطف .

وبالمقابل ، كان صمت الدكتور هافل يضايق الصحفي ، بحيث بادر
للقول : « أعرف ، إنها ليست جميلة .

— قال هافل : بالطبع ليست جميلة » .

طاطا الصحفي رأسه : « وثرثرة قليلا ، لكن فيما عدا ذلك لطيفة !

— قال هافل : أجل ، لطيفة . لكن قد يكون الكلب أيضاً لطفاً .
وكذلك الكناري أو البط الذي يتخطر في ساحة المزرعة . المهم في الحياة
ليس الإستحواذ على أكبر عدد ممكن من النساء ، لأن ذلك ليس إلا نجاحاً
ظاهرياً . بل المقصود تنميته حاجة ملحة لنفسه . تذكر جيداً يا صديقي
بأن الصيد الحقيقي يلقي الأسماك الصغيرة في الماء » .

‘خذ الشاب يعتذر وأكد أنه كانت لديه شكوك جدية بشأن صديقته،
ويشهد على ذلك أنه طلب رأي الدكتور هافل .

قال هافل : « لا أهمية لذلك . فلا تشغل نفسك به » .

لكن الشاب كان يواصل الاعتذار وتبرير سلوكه ، وانتهى إلى القول
بأن عدد النساء الجميلات الموجودات في الحمة قليل في الخريف وأنه
كان مضطراً لأخذ ما يجده .

رد الدكتور هافل : « لا أتفق معك في هذه النقطة . شاهدت هنا
العديد من النساء الجذابات جداً . لكنني سأصلحك بأمر . ثمة جمال

ظاهري للمرأة التي يعتبرها الذوق القروي خطأ جميلة . ومن ثم يوجد الجمال الحقيقي الشقي للمرأة . لكن المؤكد أن معرفة ذلك الجمال من النظرة الأولى ليس أمرا سهلا . إنه فن « ثم صافح الشاب وابتهد .

٨

أصبح الصحفي يائسا : كان يدرك أنه غبي لا علاج له ، تائه في صحراء شبيهة المترامية (كان يظنها مترامية) ؛ ويدرك أن الدكتور هافل وضع له علامة سيئة ؛ ويتراءى له دون أي مجال للشك أن صديقه تافهة ومنفرة وغير جميلة . حين عاد للجلوس بجانبها ، توهم بأن جميع رواد المقهى ، مثل التالدين اللذين يذهبان ويجيئان ، يعلمون بذلك وينظرون إليه بشفقة مهينة . طلب الحساب وأوضح لصديقه أن لديه عملا مستعجلا وأنه مضطر لمغادرتها . اغتمت وشعر بقلبه ينقبض : فقد كان يعلم تماما بأنه على وشك أن يلقيا ثانية في الماء مثل صياد حقيقي ، ومع ذلك ما زال يحبها في قرارة نفسه (سرا وبنوع من الخجل) .

لم يومض اليوم التالي بأي بصيص نور في مزاجه الكئيب ، وحين التقى الدكتور هافل أمام منشأة الحمة المعدنية برفقة سيدة انيقة ، فرح تحت وطأة احساس بالحسد يكاد أن يشبه تقريبا الكراهية : فتلك المرأة جميلة على نحو قاضح ، ومزاج الدكتور هافل الذي اوما له بفرح حين لمح منشور على نحو قاضح ، حتى أن الصحفي أصبح يشعر بنفسه أكثر بؤسا .

قال هافل : « أقدم لك رئيس تحرير مجلة الحمة : سعى للتعرف علي فقط ليحظى بمقابلتك » .

حين ادرك الشاب أنه إزاء امرأة شاهدها على الشاشة ، لم يفتأ ارتباكته يتزايد ، أكرهه هافل على مرافقتهما ، وراح الصحفي يشرح مشروع مقابلاته مثلثما وأردفه بفكرة جديدة : أن ينشر في مجلته مقابلة مزدوجة للسيدة هافل والدكتور .

أجاب هائل سرعة : « يا صديقي العزيز ، كانت الأحاديث التي تبادلناها لطيفة وحتى ممتعة بفضلك لكن أخبرني لماذا يترتب نشرها في صحيفة مخصصة للمصليين بالكبد وبالقرع في الأمعاء ؟

— تهكمت السيدة هائل : أتخيل أحاديثك بيسر .

— قال الدكتور هائل : تكلمنا عن النساء . وجدت في السيد رفيقا ومحدثا من الطراز الرفيع ، والصاحب المضيء في أيامي المظلمة » .

التفتت السيدة هائل نحو الشاب : « ألم يستمك ؟ » .

كان الصحفي سعيداً لأن هائل سماه صاحبه اللطيف ، وأصبح حسده ممتزجاً بالإمتنان : فالأصح أنه هو الذي أسام للدكتور ، وأنهمي لأن يضيف بأنه كان على دراية تامة بقلته خبرته وعدم أهميته وتفاهته .

قالت الممثلة : « آه يا عزيزي ، لابد وأنك تباهيت ! » .

دافع الصحفي عن الطبيب « هذا ليس صحيحاً ! أنت تقولين ذلك ياسيدي العزيزة لأنك لاتعرفين ماهي المدينة الصغيرة وماهو الحجر الذي أقطنه .

— احتجت الممثلة : لكنها مدينة جميلة .

— بالنسبة لك أجل ، لأنك لاتقيمين فيها إلا لبعض الوقت . أما انا فأقطن فيها وسأظل أقطن فيها . دوماً اللائرة نفسها من الناس الذين أعرفهم عن ظهر قلب ، دوماً الناس أنفسهم الذين يفكرون جيمعاً بالشيء نفسه ، وكل ما يفكرون به ليس إلا حماقات وتفاهات . يجب أن أعيش على وفاق معهم ، شئت ذلك أم أبيت ، واتكيف معهم ، شيئاً فشيئاً ، دون أن انتبه لذلك . كم هو مرعب ! تصوري ان أصبح واحداً منهم ! تصوري أني قد أرى العالم بعيونهم الحسيرة ! » .

صار الصحفي يتكلم بانفعال متزايد وخيل إلى الممثلة أنها التقطت في كلماته عاصفة الإحتجاج الأبدى للشباب ، كانت مفتونة بذلك ومبليلة منه فقالت : « كلا ، لا ينبغي أن تتكيف . لا ينبغي ! » .

— وافق الشاب قائلا : لا ينبغي ، نهني الدكتور الباردة . ينبغي بأي ثمن أن أخرج من الحلقة المفرغة لهذا الوسط . من الحلقة المفرغة لهذه النداء وهذه الضحالة . ينبغي أن أخرج منها ، ردد الشاب ، أن أخرج منها .

— شرح هافل لزوجته : قلنا إن الدوق الريفى المتبدل يصنع مثلاً أعلى مزيماً للجمال ، وأن هذا المثال هو الجنسي بالأساس ، لادل مصاد للجنسي ، بينما يظل السحر الحقيقي الجنسي والمتفجر خفياً على ذلك للدوق . يوجد حولنا نساء بمقبورهن تعليم أي رجل على أكثر العنصرات الجسدية المدوخة ولا أحد يراهن .

— أيد الشاب : وهو كذلك.

— استورد الطبيب : لا أحد يراهن ، لأنهم يتطابقن مع المعايير ؛ في الحقيقة ، يتبدى السحر الجنسي بفرايته أكثر من انتظامه ؛ بتعبيرته أكثر من معياره ، بشلوذه أكثر من رشاقتة المتبدلة .

— أيد الشاب : أجل .

— قال هافل لزوجته : هل تعرفين فرنيسكا ؟

— قالت الممثلة : أجل .

وتعلمين أن كثيراً من أصدقائي يهبون كل ما يملكون لكي يمضوا ليلة واحدة معها . أراهن على قطع رأسي أن أحداً لم يلاحظها في هذه المدينة.

حسناً ، أخبرني باصديقي ، انت الذي تعرفها ، هل لاحظت من قبل
ان فرنسيسكا امرأة غير عادية ؟

— قال الشاب : لا ، بصدق ، لا ! لم يخطر على بالي ابداً النظر
إليها كامرأة !

— قال الدكتور هافل : لا يدهشني ذلك . فانت لم تكن تجد فيها
الارقة الكافية ولا الثرثرة الكافية . وليس لديها نمش !

— قال الشاب بهيئة بائسة : وهو كذلك . ادركت البارحة إلى اي
مدى انا احمق .

— استطرد هافل : لكن هل لاحظت أحياناً مشيتها ؟ هل لاحظت
من قبل ان ساقها تتكلمان بفصاحة حين تمشي ؟ يا صديقي ، لو كنت
تسمع ما يقوله ساقها ، لاصطبغ وجهك بالاحمر ، ومع ذلك انت فاسق
لعين كما اعرفك .

— ٩ —

قالت الممثلة لزوجها حين أصبحا وحيدن : « تحب كثيراً الاستهزاء
بالمساذجين .

— قال : تعلمين ان هذا بالنسبة لي علامة مزاج طيب . وأقسم لك
انها المرة الأولى التي يحصل لي فيها ذلك منذ وجودي هنا .

لم يكن الدكتور هافل يكذب هذه المرة ؛ فعندما دخلت الحافلة إلى
المحطة في الصباح ، وشاهد عبر زجاج النافذة زوجته الجالسة ، ثم حين
شاهدها تقف على باب الحافلة مبتسمة ، شعر بنفسه سعيداً ، وبما
ان الايام السالفة تركت فيه مخازن البهجة سليمة بكاملها فقد عبّر عن
فرحه طيلة النهار بطريقة طائشة قليلاً . تنزهها سوية تحت القناطر

وتلذا بأقراص الخوى وذهباً إلى فرنسيسكا ليستمعاً عندها إلى التعليقات حول أحداث ابنها الأخيرة ، فلما بنزهة مع الصحفي وقد ذكرناها في الفصل السابق وسخراً من النزلاء المرضى الذين يقومون بنزهتهم الصحية في شوارع الحمة . لاحظ الدكتور هافل بهذه المناسبة أن بعض المارة يحدقون في المثلة ، وقد تيسر له التأكد أنهم توقفوا للنظر إليها حين التفت إلى الوراء .

قال هافل : « لقد عرفوك . الناس هنا لا يدرون ماذا يفعلون لذلك يذهبون إلى السينما بولع .

— هل يزعجك ذلك ؟ سألت المثلة التي كانت تعتبر الإعلان الملازم لمهنتها بمثابة ذنب ، لأنها مثل جميع أولئك الذين يعشقون الحب الحقيقي ، كانت تتوق لحب هاديء وخفي .

— قال هافل : بالمعكس » وضحك ، ثم تسليطاً بلعبة صيانية ، وهما يحاولان أن يحزرا المارة الذين سيتعرفون عليها أو لن يتعرفوا عليها ، ويتراهنان على عدد الأشخاص الذين سيتعرفون عليها في الشارع التالي . وكان الناس يلتفتون إلى الوراء ، سادة عجائز وفلاحون وصبية ، وأيضاً عدد من النساء الجميلات اللواتي كن يتعالجن في هذا الفصل .

كان هافل الذي يعيش مهملًا على نحو مهين منذ بضعة أيام يبتهج من اهتمام المارة ويرغب في أن تسلط عليه أيضاً أشعة الانتباه بقدر المستطاع ؛ فيطوق خصر المثلة ، ويهمس في أذنها بكل أنواع الغزل والفجور ، وكانت بالمقابل مشدودة إليه وتتطلع إلى وجهه بعينيهما الفرحتين . وأصبح هافل بتأثير الانظار الموجهة إليه يشعر أنه يستعيد وجوده المرئي المفقود ، وأن قسمااته الغامضة غدت محسوسة وواضحة ، وصار مزهواً من جديد بالفرح الذي يمد به جسده وخطواته وكل كيانه .

كانا يحاذيان هكذا الواجبات الزاجية لشارع الرئيسي متحاضنين بحب ، حين لمح الدكتور هافل في متجر لوازم الصيد الممسدة الشقراء

التي عاملته في الأمس بمنتهى الإزدراء ، كانت في الحانوت الفارغ وتثرثر مع البائعة . قال فجأة لزوجته المندهشة « تعالي ، إنك أروع مخلوقة أعرقها ؛ أود تقديم هدية لك » ثم أمسك يدها وجذبها إلى المتجر .

سكتت المراتان ؛ وتاملت المسيدة طويلا الممثلة ، ثم باختصار هافل ، ثم من جديد الممثلة ، ثم هافل الذي لاحظ ذلك بارتياح ، لكن دون أن يخصها بنظرة واحدة استعرض بسرعة السلع المعروضة ؛ أخذ يتفحص قرون الأيل ومحافظ الصيد والفدارات والمناظير والقصبات والكمامات .

سالت البائعة : « مانا تريدان ؟ »

— قال هافل : لحظة « ثم انتهى إلى اكتشاف صفارات تحت زجاج منضدة البائعة فأشار إليها بإصبعه . ناولته البائعة إحداها ، فوضعها هافل بين شفتيه وصفر ، ثم تفحصها ثانية من كل الجهات وصفر مرة أخرى بلطف . قال للبائعة « ممتاز » ووضع أمامها الخمس كورونات المطلوبة . ناول الصغارة إلى زوجته .

كانت الممثلة ترى في هذه الهدية إحدى التصرفات المصبيانية التي تحبها لدى زوجها ، وتهربا يستمد معناه من لفوه ، فشكرته بنظرة حبه . لكن هافل ارتأى أن ذلك ليس كافيا وقال لها بصوت خافت : « أهكذا تشكريني على هدية بمثل هذا الجمال ؟ » فقبلته الممثلة . تابعتهما المراتان بعيونهما وتمقبتاهما أيضا بنظراتهما حين خرجا من المتجر .

بعد هذا تابعا من جديد نزتهما في الشوارع والحديقة العامة ، وقضيا أقراص الطوى ، وصفرا بالصافرة ، وجلسا على مقعد وتراهما ، وهما يتسلقان بالتحزر من عدد المارة الذين كانوا على وشك الالتفات إلى الوراء . وحين دخلا في المساء إلى المطعم ، كلاهما يصطلمان بالمرأة الشبيهة بحصان السباق . ألقت عليهما نظرة مندهشة ، طويلة على الممثلة ومختصرة على هافل ثم من جديد على الممثلة ، وحين نظرت ثانية

إلى هافل حيثه رغباً عنها . حياها هافل بدوره ، وسأل زوجته بصوت خافت وهو ينحني على أذنها فيما إذا كانت تحبه . رمقته المثلثة بنظرة عاشقة مديدة وداعبت وجنته .

جلسا بعد ذلك إلى طاولة ، وتناولا وجبة خفيفة (لأن المثلثة كانت تراعي حمية زوجها بدقة) ، وشربا النبيذ الأحمر (الوحيد الذي يحق للدكتور هافل شربه) ثم اعترت السيدة هافل برهة تأثر . مالت نحو زوجها وامسكت يده وقالت له بأن هذا النهار هو من أجمل النهارات التي عرفتھا ؛ واعترفت له بأنها شعرت بالحزن الشديد حين غادر للاستشفاء ؛ اعتذرت أيضا مرة أخرى لأنها كتبت له رسالة حمقاء من امرأة غيورة وشكرته لأنه تلقى لها وطلب منها اللحاق به ؛ قالت بأنه سيسعدها دائما المجيء لرافقته حتى لو لم تره إلا دقيقة واحدة ؛ ثم شرحت بإسهاب ان الحياة مع هافل هي بالنسبة لها عذاب وشقاء في كل اللحظات ؛ كما لو كان هافل على وشك الفرار منها دوماً ؛ لكن لهذا السبب بالذات ، كان كل يوم بالنسبة لها فرحا متجددا ، واستئنافا جديدا للحب ، وهبة جديدة .

ثم توجهوا سوية إلى حجرة الدكتور هافل وبلغ فرح المثلثة ذروته بسرعة .

١٠

بعد اليوم التالي ، ذهب الدكتور هافل إلى جلسة المعالجة بالماء ووصل ثانية متأخراً ، لأنه لم يصل أبداً في الموعد المحدد حقاً . واستقبلته المسدة الشقراء نفسها ؛ لكنها لم تبد له هذه المرة وجها عبوساً ، ابتسمت له ونادته بالدكتور ، فاستنقج هافل من ذلك أنها ذهبت للاطلاع على بطاقته في مكتب المنشأة أو أنها استخبرت بشأنه . لاحظ هذا الاهتمام برضى وذهب ليخلع ملابسه خلف حاجز الحمام ، وحين أخبرته المسدة أن حوض الحمام امتلأ ، خرج مبرزاً سرته بفخر وتمدد في المفطس مبتهجاً .

دارت المسدة الصبور على لوحة القيادة وسألت هافل فيما إذا كانت زوجته ما تزال معه . رد هافل بالنفي فسألته المسدة فيما إذا كان الناس سيشاهدونها عما قريب في فيلم جميل . رد هافل بالإيجاب، ورفعت المسدة ساقه اليمنى . ولأن الدفق كان يدغدغ باطن قدمه ابتسمت المسدة وقالت بأن الدكتور يبدو ذا جسد حساس جداً . ثم ظللا يثرثران وعلق هافل بأن الحياة مضجرة هنا . ابتسمت المسدة ابتسامة معبرة وقالت بأن الدكتور يعرف كيف يتلبر أمره لكي لا يضجر. وحين انحنت إلى الإمام لكي تركز الفوهة على صدره وحين أطرى هافل نهديها اللذين شاهد جيداً الجزء الأعلى منهما في الوضعية التي القى نفسه فيها ، أجابت المسدة بأن الدكتور شاهد من قبل أجمل منهما حتماً .

استنتج هافل من هذه الاحاديث ان الإجرة القصيرة لزوجته قد غيرته تماماً في نظر هذه الفتاة اللطيفة ذات العضلات ، وأنه اكتسب فجأة سحراً والأصح : أن جسده غدا بالنسبة لها فرصة للارتباط سراً بممثلة مشهورة ولتصبح مثل امرأة ذائعة الصيت تجذب إليها أنظار الجميع . أدرك هافل أن كل شيء مباح له في الحال ، وأنه موعود بكل شيء ضمناً ومقدماتاً .

لكن وحسب ما يحدث في الحياة غالباً ، حين تكون مسرورين نرفض عن طيب خاطر وبمعجزة الفرص التي تمنح لنا ، لكي نؤكد ذواتنا في امتلائنا المفتبط . كان يكفي أن تتخطى الفتاة الشقراء عن كبرياتها المهين وأن يصبح صوته رقيقاً ونظرتها متواضعة لكي يفقد الدكتور هافل رغبته بها .

توجب عليه بعد ذلك التمدد على بطنه والاحتفاظ بذقنه خارج الماء واستمتع بالدفق الشديد يرشه من رأسه حتى قدميه . كانت هذه الوضعية تبدو له وضعية دينية للخشوع والشكر : كان يفكر في زوجته

ومقدار جمالها ومقدار حبه لها ومقدار حبها له ، وأنها كانت نجمة السعيدة التي تكسبه حظوة المفامرة والفتيات ذوات العضلات .

وعندما انتهى التدليك ونهض للخروج من المقطس ، بدت له المسدة ذات البشرة العذبة بجمال في غاية الكمال وغاية اللذة ، ونظرتها مدعنة بمنتهى الخضوع ، وإن لديه رغبة بالانحناء في الاتجاه الذي يتوقع وجود زوجته فيه عن بعد . لأنه كان يخال أن جسد المسدة واقف على اليد الضخمة للمثلة وأن تلك اليد تناوله الجسد كرسالة حب وكقربان . وراودته فكرة بأنه يهين زوجته إذا رفض هذا القربان ورفض هذه الفتنة الحثيثة . ابتسم للشابة المتعركة وقال لها بأنه حجز سهرته لها وأنه سينظرها في فورش الساعة السابعة . وافقت الشابة وتدثر هافل بمنشفة الحمام الكبيرة .

حين ارتدى ملابسه ورتب شعره ، تأكد أن مزاجه منشرج الغاية . كان يرغب بالثروة فتوقف عند فرنسيسكا ، وقد جاءت هذه الزيارة في أوانها لأنها هي أيضاً كانت في حالة ممتازة . راحت تتكلم عن كل شيء ولا شيء ، وتنتقل بين شتى الأحاديث المتهاففة ، لكنها تعود دوماً إلى الموضوع الذي عالجه عند لقائهما الأخير : عمرها ؛ فقد كانت تحاول بمبارات مبهمة الإشارة إلى أنه لا ينبغي الرضوخ لعدد السنين وأن عدد السنين لا يشكل عائقاً دوماً ، وأنه إحساس في غاية الروعة حين يكتشف المرء فجأة أنه يستطيع التكلم بهدوء كند مع أناس أكثر شباباً . قالت فجأة : « وليس الأطفال كل شيء . أنت تعلم مقدار حبي لأطفالي ، لكن ثمة أمور أخرى أيضاً في الحياة » .

لم تخرج أفكار فرنسيسكا للحظة عن نطاق التجريد الفامض ، وبالنسبة لأي شخص غير خبير لا يمكن أن يكون ذلك سوى ثروة عابرة . لكن هافل كان خبيراً واكتشف المضمون الذي يتوارى وراء الثروة . استنتج من ذلك أن سعادته الشخصية ليست إلا حلقة في سلسلة طويلة من السعادات وقد تضاعف ابتهاجه لأن له قلباً نبيلاً .

أجل ، كان الدكتور هافل يرى الصواب : ذهب الصحفي إلى الدكتور في اليوم نفسه الذي مدحها فيه معلمه . أظهر جراءة مفاجئة بعد بضعة عبارات وقال لها بأنه معجب بها وود رؤيتها . أجابته الدكتور بصوت متهدج أنها أكبر منه سناً ولديها أطفال . شعر الصحفي من هذه الإجابة بلزدياد ثقته في نفسه ولم يجد أية صعوبة في العثور على الرد المناسب : أكد أن الدكتور تتمتع بجمال خفي أئمن من الجمال البتيل ؛ قرظ مشيتها وقال أن ساقها تتكلمن حين تمشي .

وبعد يومين ، حين كان الدكتور هافل يصل متمهلاً إلى فورش ويلمح من بعيد الفتاة الشقراء ذات العضلات ، كن الصحفي يتمشى بلهفة في ملحقة الضيق ؛ كان شبه واثق من نجاحه ، لكنه يخشى احتمال الخطأ أو الصدفة التي قد تحجبه عنها ؛ كان يفتح بين الفينة والأخرى الباب لينظر نحو الأسفل إلى قفص الدرج ، شاهداً آخر .

كان الاهتمام الذي ارتدت به الدكتور منذبها وتجملت ينسي تقريباً المظهر المألوف لهذه المرأة بالنطال الأبيض والقميص الأبيض ؛ أخذ الشاب يقول لنفسه في غمرة اضطرابه أن السحر الجنسي لفرنيسكا الذي لم يكن حتى ذلك الحين إلا هاجساً ، أصبح الآن حاضراً أمامه ، ومفضوحاً على نحو فاحش تقريباً ، وشعر أن الخجل الذي يولد الاحترام يستولي عليه ؛ ولكي يقهره ، أمسك الدكتور من ذراعيها حتى قبل أن يفتح الباب وبدأ يقبلها بشدة . جفلت من هذه المفاجأة ورجته أن يدعها تجلس . وافق على ذلك ؛ لكنه جلس في الحال عند قدميها وقبّل جواربها فوق الركبتين . وضعت يدها في شعره وحولت بإساده برفق .

لنهدف السمع إلى ما كانت تقوله له : باديء ذي بدء ، رددت عدة مرات : « يجب أن تكون عاقلاً ، يجب أن تكون عاقلاً ، عذني أن تكون

عاقلاً « عندما قال لها الشاب : « أجل ، أجل ، ساكون عاقلاً » وهو يقرب شفتيه إلى أعلى فوق النايلون الخشن ، قالت : « لا ، لا ، ليس هنا ، لا ، لا » وحين وضعهما إلى أعلى أيضاً ، بدأت فجأة ترفع الكلفة معه واكدت : « أوه ، أنت مجنون ، أوه أنت مجنون ! » .

هذا التأكيد قرر كل شيء . لم يصادف الشاب بعداية مقاومة . كان مذهولاً ؛ مذهولاً من نفسه ومن سرعة نجاحه ، مذهولاً من عبقرية هائل التي أصبحت ترافقه وتتغلغل فيه ، مذهولاً من عري المرأة الراقدة تحته في احتضان عاشق . كان يريد أن يصير معلماً ، كان يريد أن يصبح ماهراً ، كان يريد البرهنة على شبقه ونهمه . نهض بخفة لكي يتفحص بنظرة شرهة جسد الدكتوراة الممدد وتمتم « إنك جميلة ، إنك بهيئة ... » .

أخضت الدكتوراة بطنها بيديها وقالت : «أمنعك من السخرية مني»

— ماذا تقصدين بهذا ! كأنني كنت أسخر منك ! أنت بهيئة !

— قالت وهي تضمه إليها لكي لا يراها : لا تنظر إلي . لديها طفلان.

هل تعلم ذلك ؟

— قال الشاب دون أن يفهم : طفلان ؟

— هذا واضح . لا أريدك أن تنظر إلي » .

هذه الملاحظة أخذت نوعاً ما اندفاعاً الشاب الأولية ولم يهتد إلى مستوى الإثارة المناسب إلا بجهد ؛ ولكي يبلغه على نحو أفضل ، حاول تنفيذية النشوة الهاربة بالكلمات وهمس في أذن الدكتوراة بأنه جميل أن تكون معه هنا ، عاربة ، عاربة نملماً ، عاربة تملماً .

كانت الدكتورة تقول له : « أنت لطيف ، أنت في غاية اللطف » .

تكلم الشاب ثانية من عري الدكتورة وسألها فيما إذا كان يشيها ،
هي أيضاً ، أن تكون معه هنا عارية .

قالت الدكتورة : « إنك طفل . طبعاً يشيمني ذلك » لكنها أضافت
بعد هنيهة صمت أن كثيراً من الأطباء شاهدوها من قبل عارية للدرجة أن
ذلك أصبح تافهاً . قالت : « إنهم أطباء أكثر من كونهم عاشقين » ودون
أن توقف حركاتهما العاشقة راحت تتكلم عن ولادتها العسيرة : « ذلك
يستحق العناء » وقالت كنتيجة : « لدي طفلان رائعان . رائعان ،
رائعان ! » .

بدأت الإثارة المكتسبة بمشقة تبارح الصحفي مرة أخرى ، كان
يشعر فجأة أنه في المقهى ويشتر مع الدكتورة أمام قرح شاي ؛ إنه ناغم
عليها ؛ أصبحت حركاتها غاضبة فحاول استمالتها بعبارة أكثر
حسية : « حين ذهبت لرؤيتك آخر مرة ، هل كنت تعلمين بأننا
سنتضاجع ؟

— وافت ؟

— قال الصحفي : كنت أرغب بذلك ، كنت أرغب بذلك كثيراً ! «
وحمل كلمة « أرغب » شغفاً بليفاً .

همست له الدكتورة : « أنت تشبه ابني ، أيضاً يود الحصول على
كل شيء ، أسأله دوماً : ألا ترغب بساعة مع فوارة ماء ؟ » .

هكنا كلنا يتضاجعان ، الدكتورة تتكلم وهي مفتونة بحديثهما .

حين جلسا بعد ذلك على الأريكة جنباً إلى جنب ، عارين ومتعبين ،
دأبت الدكتورة شعر الصحفي وقالت له : « لديك خصلة مثله .

— من هو ؟

— ابنني .

— علق الصحفي بلوم خجل : تتكلمين طيلة الوقت من ابنك .

— قالت الدكتورة بغضب : كما تعلم إنه أثير أمه ، أثير أمه .

ثم نهضت وارتدت ملابسها . وفجأة راودها في حجرة الشاب الصغير إحساس بأنها شابة ، فتاة في ريعان الصبا ، وشعرت بنفسها معافاة على نحو ممتع . حين غادرت ، ضمت الصحفي إلى صدرها ، كانت عيناها طافحتين بالامتنان .

١٢

بدأ نهار جميل بالنسبة للدكتور هافل بعد ليلة جميلة . تبادل أثناء الإفطار بضعة كلمات واعدة مع المرأة الشبيهة بفرس السباق ، وحين عاد من علاجه في الساعة العاشرة كانت تنتظره في حجرته رسالة حب من زوجته . ذهب بعد ذلك للتنزه تحت القنطرة في موكب المرضى ، كان يرفع إلى شفثيه طاسة مليئة بماء النبع ويُسْرِقُ بالفبطة . غدت عيون النساء اللواتي كن يعبرن بجانبه قبل بضعة أيام دون أن يلاحظنه تحديق فيه ، وكان ينحني بخفة لتحيتهن . حين لمح الصحفي ، اقترب منه لمخاطبته بمرح : « مررت بعيادة الدكتورة منذ قليل وبحسب بعض العلامات التي لا يمكن أن تفوت عالم نفس جيد ، لدي إحساس بأنك نجحت ! » .

لم تكن لدى الشاب رغبة أعز من الإفشاء بما لديه لعلمه ، لكن الطريقة التي انقضت بها سهرة الأمس كانت تتركه متردداً قليلاً ، فهو ليس واثقاً تماماً من أن تلك السهرة كانت رائعة كما يجب ، ولا يعلم فيما إذا كان تقرير دقيق وأمين سيرفع من شأنه في نظر الدكتور هافل أم سيحبط منه ، وراح يتساءل عما يجب البوح به أو إخفاؤه عن الطبيب .

لكنه حين رأى وجه هافل مشرقاً بالوقاحة والمرح ، لم يمتلك نفسه من إجابته بالنبرة نفسها المرحية والوقحة ، وقرظ عبارات حماسية المرأة التي نصحه بها الدكتور هافل . قال بأنها فتنته منذ أن بدأ ينظر إليها بعينين مختلفتين عن عيون سكان الريف ، وحكى أنها وافقت بلطف على المجيء إلى منزله وأنها منحت نفسها بسرعة فائقة ..

حين بدأ الدكتور هافل يطرح عليه الأسئلة المحددة والمفصلة ، لكي يطل الأمر بكل دقائقه ، اضطر الشاب في إجاباته طوعاً أو كرهاً على مقاربة الحقيقة أكثر فأكثر ، ولانتهى إلى الاعتراف بأنه رغم رضاه التام من كل الجوانب ، لكن المحادثة التي أجرتها الدكتورة معه أثناء ممارسة الحب أوقعت به شيء من الارتباك .

كان الدكتور هافل مهتماً جداً وحين كرر الصحفي على مسامعه المحادثة بالتفصيل ، تحت إلحاحاته ، دعم روايته بعلامات تعجب حماسية « ممتاز ! تمام ! » « آه ، يا قلب الأم الإبلدي ! » و : « أحسبك يا صديقي ! » .

في هذه اللحظة ، جاءت المرأة الشبيهة بفرس السباق لتقف أمام الرجلين . انحنى الدكتور هافل فصافحته المرأة الطويلة . قالت : « اعدرني ، إنني متاخرة قليلاً ! »

— قال الدكتور هافل : لا أهمية لذلك . لدي حديث هام جداً مع صديقي . أروك أن تسمح لي بلحظة ، أود إنهاء هذه المحادثة . »

ودون أن يترك يد المرأة الطويلة ، التفت إلى الصحفي : « ما قلته لي للتو يفوق كل آمالي . لأنه يجب أن تفهم أن اللذات الجسدية المهمة في صمتها هي ذات رتبة كئيبة ، امرأة تقلد الأخرى في المتعة وجميعها تنسى في جميعها . ولكننا إذا كنا نندفع في متع الحب فذلكا لكي نتذكرها لكي تزين نقاطها المضيئة شريط شبابنا المشع في شيخوختنا ، لكي تحافظ

على ذاكرتنا في اقبال ابدى ! واعلم يا صديقي ان كلمة وحيدة واضحة في
هذه الحالة الالفه من كل الحالات ، يمكن ان تضيئها بنور يجعلها لا تنسى .
يقول الناس عني بانني هاوي جمع النساء . وفي الحقيقة انني هاوي جمع
كلمات على الاخص . صدقني بانك لن تنسى ابداً سهرة الأمل ، وستكون
سعيداً بها طيلة حياتك ! » .

ثم لوماً برأسه إلى الشاب ، وابتعد ببطء وهو يمسك بند المرأة
الطويلة الشبيهة بالفرس على امتداد القناطر .

* * *

المحاور

الفصل الأول

قاعة المناوبة :

ضمت قاعة المناوبة (في قسم ما من مشفى ما في مدينة ما) خمسة شخصيات وجدلت تصرفاتهم وتقاشاتهم في حكاية ساخرة ، وبالأحرى مرحلة .

يوجد فيها الدكتور هافل والمرضة إليزابيت (كلاهما يمارسان وظيفتهما الليلية) ويوجد طبيبان آخران (قادتهما إلى هنا حجة متهافنة تقريباً للثروة والشرب بضعة زجاجات سورية) : المدير وجمجمته الضلعاء ودكتورة جميلة في حوالي الثلاثين من عمرها تعمل في قسم آخر وتعرف كل المشفى منها أنها تنام مع المدير .

(المدير متزوج طبعاً وينطق الآن بعبارته الأثيرة ، التي لا بد لها من أن تؤكد في آن معاً حس الفكاهة لديه ومعاصده : « زملائي الأعزاء ، أكبر تعاسة بالنسبة للرجل هي زواج سعيد . فلا أمل بالطلاق ») .

بالإضافة إلى هذه الشخصيات الأربعة ، توجد شخصية خامسة ، ولكنها والحق يقال ليست هنا لأنهم أرسلوها لاضرار زجاجة جديدة باعتبارها الأصغر سناً . وثمة نافذة ، وهي مهمة لأنها مفتوحة على ظلام الخارج وتترك المجال باستمرار لدخول القمر مع الصيف الدافئ والمعنطر إلى الحجرة . وأخيراً ، توجد البهجة التي تكشفها الثثرة اللطيفة عن كل شيء ، لا سيما عن المدير الذي يصغي إلى هذياناته الشخصية بأذنين عاشقتين .

بعد ذلك بقليل (وهي اللحظة التي تبدأ فيها قصتنا) يسود توتر
ما : شربت إيزابيت أكثر مما يليق بممرضة تمارس عملها ، وفوق ذلك
تظهر حيال الدكتور هافل غنجاً مغرباً يثيره ويؤدي إلى تنبيه حاد من
جانبه .

تنبيه الدكتور هافل :

« لا افهمك يا عزيزتي إيزابيت . في كل الأيام تتخطين في جراح
متقنحة ، تحقنين بالإبر الأهداف المتصلبة للعجائز ، وتعطين الحقن
الشرجية وتفرغين الأحواض . منحك المقدر فرصة تحسدين عليها لفهم
الطبيعة الشهوانية للرجل في كل بطلانها الميتافيزيقي . لكن حيوتك
ترفض الازعاج للصواب . ليس بوسع شيء زعزعة إرادتك العنيدة من أن
تكون جسداً وجسداً لا غير . يتحدى نهدك الرجال على مسافة خمسة
امتار ! اشعر بالنشوة لرؤيتك تمشين وحسب ، بسبب الحزوزات
الدائمة التي يرسما ردفاك الذي لا يتعب . ابتعدي قليلا بحق الشيطان !
نهدك كليا الوجود كالقدر ! إنك الآن متأخرة عشر دقائق عن الحقن ! » .

الدكتور هافل كالوت يستحوذ على كل شيء .

سأل المدير حين خرجت إيزابيت من قاعة المناوبة (مهانة بوضوح)
وقد حكم عليها بحقن ردفين عجوزين : « من فضلك يا هافل ، هل
بوسعك أن تشرح لي لماذا تطرد بمنتهى الاصرار تلك البائسة إيزابيت ؟ » .

شرب الدكتور هافل جرعة وأجاب : « ايها المدير ، لا ينبغي أن
تعاتبني . ليس ذلك لأنها قبيحة أو لأنها لم تعد شابة كثيراً . صدقني !
حصلت سابقاً على نساء أكثر قبحاً واكبر سناً بكثير .

— أجل ، أفهمك ، افهمك : انك كالوت ، تستحوذ على كل شيء
ولكن ما دمت تستحوذ على كل شيء ، لماذا لا تستحوذ على إيزابيت ؟

— قال هافل : ذلك بلا ريب لأنها تفصح عن رغبتها بطريقة معبرة
لدرجة أن هذا يشبه الأمر . أنت تقول بأنني كالموت حيال النساء لكن
الموت لا يجب أن يصدر إليه أحد الأوامر » .

النجاح الأعظم للمدير :

« أجاب المدير : » اعتقد أنني أفهمك . عندما كنت أصغر سناً من
الآن ببضع سنوات ، تعرفت الى فتاة كانت تنام مع كل الرجال ولأنها
كانت جميلة ، قررت الحصول عليها . تصور ، لم ترغب بي ! كانت تنام مع
زملائي ومع السائق والطباخ وجمال الجثث ، وكنت الوحيد الذي لا تنام
معه . هل يوسعك تخيل هذا ؟ .

... علقت الدكتورة : طبعاً .

— استطرد ، بتبرم ، المدير الذي كان يخاطب عشيقته باحترام أمام
الناس : إذا أردت معرفة ذلك ، في تلك الفترة ، كنت قد حزت على
الشهادة منذ بضع سنوات فقط وقد حققت الكثير من النجاحات . كنت
مقتنعاً أن كل امرأة سهلة المنال ، وقد أفلحت في البرهنة على ذلك مع
نساء منيعات جداً . وكما ترى ، أخفقت مع تلك الفتاة رغم أنها سهلة
جسداً .

— قال الدكتور هافل : بحسب معرفتي بك ، لديك بالتأكيد نظرية
لتفسير ذلك .

— رد المدير : أجل . الشهوة ليست فقط الرغبة بالجسد ، لكنها
في مقياس مماثل ، الرغبة في الشرف . يصبح الرفيق الذي حصلنا عليه
والذي يحرص علينا ويحبنا مرآتنا ، إنه مقياس أهميتنا وقيمتنا . من
وجهة النظر تلك ، لم تكن عاهرتي الصغيرة مهمة سهلة . عندما تنام امرأة
مع كل الرجال تكف عن الإيمان بأن امرأة تافهة مثل ممارسة الحب يمكن
أيضاً أن يحظى بأهمية ما . تسمى إذاً إلى الشرف الشهواني الحقيقي من

الجهة المقابلة . إن رجلاً تمنّاها لكنها ترفضه هو وحده الذي كان يمكن أن يقدم لمهرتي الصغرة مقياس قيمتها . وبما أنها كانت تريد أن تصبح في نظره الأفضل والأجمل ، فقد أظهرت نفسها قاسية لأبعد حد ومتشدة حين ترتب اختيار ذلك الرجل الأوحده الذي ستشرفه برفضها . اختارتني في النهاية وأدركت أن ذلك كان شرفاً استثنائياً ، واليوم أيضاً اعتبر هذا بمثابة نجاحي القرامي الأعظم .

— قالت الدكتورة : لديك موهبة مدهشة لتحويل الماء إلى خمر .

— قال المدير : إنك مهانة لأنك لست التي اعتبرها بمثابة نجاحي الأعظم ؟ يجب أن تفهميني . مع أنك امرأة فاضلة ، فإنني رغم ذلك لست بالنسبة لك (وليس بوسلك أن تعلمي إلى أي مدى يؤسفني هذا) الأولى ولا الأخير ، بينما كنت كذلك بالنسبة لتلك العاهرة الصغرة . صدقيني ، أنها لم تنسني ابداً ، وما زالت تتذكر بحنين حتى اليوم أنها رفضتني . من جهة أخرى ، لم أرو هذه الحكاية إلا لإظهار التشابه مع موقف هافل إزاء إليزابيت » .

تقرير الصغرة :

قال هافل : « يا إلهي أيها المدير ، أنت لن تذهب رغم كل شيء إلى حد المطالبة بأن أبحث في إليزابيت عن معيار قيمتي الإنسانية .

— قالت الدكتورة متهمكة : طبعاً لا ! لقد شرحت لنا ذلك من قبل . موقف إليزابيت المثير يبدو لك بمثابة أمر وتريد الاحتفاظ بوهم أنك تختار بنفسك النساء اللواتي تنام معهن .

— قال هافل متأملاً : كما تعلمين ، بما أننا نتكلم بصراحة ، ليس الأمر هكذا تماماً . في الحقيقة ، كنت أريد فقط أن أكون خفيف الدم حين قلت بأن ما يزعجني هو موقف إليزابيت المثير . بصراحة ، حظيت بنساء

مثيرات أكثر بكثير وكان يلائمني تماماً أن يكن مثيرات ؛ لأن الأحداث لم تكن تطول .

— هتف المدير : إذا ، لماذا بحق الشيطان لم تحصل على إيزابيت؟

— ليس سؤالك أيها المدير في العبث الذي ظننته في البداية ، لأنني أرى أنه من العسير جداً الإجابة عليه . ولكي أكون صريحاً لا أدري لأي سبب لم أحصل على إيزابيت . حصلت على نساء أكثر قبحاً وأكبر سناً وأكثر إثارة . ويمكن للمرء أن يستنتج من ذلك أنني سأنتهي حتماً إلى الحصول عليها . هنا ما كان سيفكر به جميع الإحصائيين . وكانت كل آلات الائتمنة ستستنتج رأياً في هذا المعنى . وانتبه ، لذلك بلا ريب لم أحصل عليها . أردت بلا ريب أن أقول لا للضرورة ، أن أعرقل مبدأ السببية . وإفساد قابلية التوقع الكثيفة للضرورة الشاملة بنزعة حرية الاختيار .

— هتف المدير : لكن لماذا اخترت إيزابيت لأجل هذه القاية ؟

— بالضبط لأنه لا يوجد سبب . لو كان يوجد سبب ، لاستطاع المرء سلفاً اكتشافه وتحديد سلوكي مسبقاً . وبالضبط في هذا الغياب للسبب يوجد ذلك الجزء من الحرية الذي يلائمنا والذي علينا أن نتجه نحوه بلا كلل لكي نظل ، في هذا العالم من القوانين القاسية ، شيء من القواضي الانسانية . زملائي الاعزاء ، لنحيا الحرية ! « قال هافل وورفع كأسه بحزن لكي يشرب النخب .

مدى المسؤولية :

في هذه اللحظة ظهرت في الحجرة زجاجة جديدة فتركز عليها في الحال كل انتباه الأطباء الحاضرين . كان فليستمان ، الشاب الجميل المتعثر ، يقف في الباب ويبيده زجاجة ، وهو طالب طب يتمرن في القسم . وضع (بهلوء) الزجاجة على الطاولة ، بحث (طويلاً) عن مفتاح السدادات ،

بعد ذلك وتلد (ببطة) المفتاح في السدادة وغرزه فيها (متأملًا) حتى انتهى إلى استخراجها (حالًا) . الاقواس السابقة مخصصة لإظهار بلادة فليشسمان ، تلك البلادة التي كانت تثبت ، بدلًا من البلادة ، الإعجاب اللامبالي الذي كان ينظر به طالب الطب بتأن إلى حقيقة وجوده ، مهملاً التفاصيل التافهة للعالم الخارجي .

قال الدكتور هافل : « ليس لهللا أي معنى . فلست أنا الذي أرفض إليزابيت ، بل هي التي لا تريدني . وا أسفاه ! إنها مولعة بفليشسمان .

— بي ؟ » رفع فليشسمان رأسه ، ثم ذهب بخطوات واسعة لإعادة مفتاح السدادات إلى مكانه ، وعاد بعد ذلك إلى قرب الطاولة الواطئة وصب النبيذ في الكؤوس .

« قال المدير موافقًا هافل على رأيه : إنك طيب ، فالجميع يعلم بذلك إلا أنت . ومنذ اللحظة التي وضعت فيها قلمك في القسم ، أصبحت لا تعاشر . وما تزال على هذه الحال منذ شهرين . »

نظر فليشسمان (طويلًا) إلى المدير وقال : « صدقًا لا أعلم شيئًا عن ذلك » وأضاف : « على أية حال ، هذا لا يهمني .

قال هافل متظاهراً بصرامة عنيفة : وكل أحاديثك النبيلة ؟ وكل استنتاجاتك حول احترام المرأة ؟ أنت تؤلم إليزابيت ولا يهمك هذا ؟

— قال فليشسمان : أشعر بالشفقة حيال النساء ولا يمكنني أبداً إيلاءهن عمداً . لكن ما أقوم به عن غير عمد لا يهمني لأنه لا يسعني شيء حياله وبالتالي لست مسؤولاً عنه . »

عادت إليزابيت بعد ذلك . كانت قد قررت بلا ريب أن أفضل ما تقوم به هو نسيان الاهانة والتصرف كما لو أنه لم يحدث شيء ، بحيث انها

كانت تتصرف بتكلف غريب . قدم لها المدير كرسيًا وملا كأسها .
« اشربي يا إليزابيث ! وانسي كل الهموم !

— أجابت إليزابيث بابتسامة عريضة : بالتأكيد « وأفرغت كأسها .

وخطب المدير فليسثمان من جديد : « لو أن المرء ليس مسؤولاً
إلا عن الأمور التي يعيها ، لكانت الحماقات مبرأة سلفاً عن كل إثم .
لكن الإنسان ملزم بالمعرفة يا عزيزي فليسثمان . الإنسان مسؤول عن
جهله . الجاهل خطيئة . لذلك لا يمكن لشيء أن يبرئك ، وأؤكد أنك
كنت تتصرف كشخص فظ مع النساء حتى لو أنكرت ذلك » .

تقريب الحب الأفلاطوني :

عاود هافل هجومه ضد فليسثمان فقلل مذكراً إياه بالفرز المعايث
الذي كان يوجهه لأحدى الفتيات :

« هل حصلت أخيراً للأنسة كلارا على الشقة التي وعدتها بها ؟ »
(كلارا فتاة معروفة لهم جميعاً)

« ليس بعد ، لكنني أهتم بذلك .

— قاطعت الدكتورة متخذة موقف الدفاع عن فليسثمان : سأقلت
انتباهك إلى أن فليسثمان مهذب مع النساء . لا يجلب لهن المتاعب .

— كرر طالب الطب : لا يمكنني احتمال أن يكون المرء فظاً مع
النساء ، لأنني أشعر بالشفقة عليهن .

— قالت إليزابيث لفليسثمان : على كل حال ، كلارا تجعلك تدفع
الثلث غالباً « وحققت بضحكة غير لائقة بحيث أن المدير ألفى نفسه
مضطرباً لاستئناف الكلام :

« غالباً أو رخيصة ، هذا أقل أهمية بكثير مما تظنين يا إليزابيث .
 فكما تعلم كل واحد ، كان أبلارد مخصياً ، ولم يمنعه هذا من البقاء ،
 هو واللويز ، عشيقين وفيين ، وجيهما خالد . عاشت جورج ساد
 طيلة سبع سنوات مع فريدريك شوبان ، طاهرة كمنزلاء ، وما زال
 الناس يتكلمون عن جيهما ! لا أريد ، في رفقة بئث هذه الرفعة ، التذكير
 بحالة العاهرة الصغيرة التي منحني أعظم شرف يمكن لامرأة أن تمنحه
 لرجل ، وذلك برفضها لي . لاحظي ذلك جيداً يا عزيزتي إليزابيث ،
 توجد بين الحب وما تفكرين به دائماً صلات أكثر هشاشة مما تتصورين .
 تأكدي أن كلارا تحب فليسشمان . إنها لطيفة معه ، لكنها تمنع عنه .
 يبدو هذا لك غير منطقي ، لكن الحب هو بالضبط غير المنطقي . »

— قالت إليزابيث ضاحكة من جديد ضحكة غير لائقة : لكن ماذا
 يوجد في هذا غير منطقي ؟ كلارا بحاجة إلى شقة ، ولذلك فهي لطيفة
 مع فليسشمان . لكنها لا ترغب بالنوم معه ، لأن لديها بالتأكيد شخص
 آخر تنام معه . لكن ليس بوسع ذلك الشخص الآخر تزويدها بشقة . »

في تلك اللحظة ، رفع فليسشمان رأسه وقال : « إنك تزعجينني .
 كلنا زمرة مراهقين . لعلها تتردد بلأفع الحياء ؟ ألم يخطر هذا على
 بالك ؟ أو لعلها تعاني من مرض تخفيه عني ؟ جرح يشوهها ؟ يوجد
 نساء يعتبرن حياء مخيف . تلك الأمور فقط هي التي لا تفهمينها على
 ما يرام يا إليزابيث . »

— قال المدير مقدماً العون لفليسشمان : أو أن قلق العشق حَجَرٌ
 كلارا أمام فليسشمان إلى درجة العجز عن مضاجعته . ليس بمقدورك
 يا إليزابيث تصور أنه بوسعك أن تحبي شخصاً ما إلى درجة أنه يستحيل
 عليك النوم معه ؟

أكدت إليزابيث أن لا .

الإشارة :

يمكننا الآن التوقف لبرهة عن متابعة المحادثة (المفناة باستمرار بالأخبار الهاذرة) لكي نوضح أن فليسيثمان يبذل جهده للنظر في عيني الدكتور منذ بداية الأمسية لأنها كانت تعجبه على نحو مذهل منذ أن شاهده لأول مرة (وقد مضى على هذا شهر) . كان جلال سنواتها الثلاثين يبهره . لم يكن قد شاهدها حتى الآن إلا على نحو عابر ، وكانت هذه الأمسية الفرصة الأولى التي سنحت له بالالتقاء معها لبعض الوقت في الحجرة نفسها . كان يشعر أنها تستجيب من حين لآخر لغزاته ، وكان متأثراً من ذلك .

إذاً ، بعد تبادل النظرات ، نهضت الدكتورة فجأة ، ثم اقتربت من النافذة وقالت : « ما أجمل الجو في الخارج . هذا البدر ... » ومن جديد استقرت نظرتها عفوياً على فليسيثمان .

فهم فليسيثمان الذي كان ذكياً في حالات من هذا النوع أن تلك كانت إشارة ، وإشارة موجبة له . وفي تلك اللحظة بالذات ، شعر أن موجة تثور في صدره . كان صدره في الحقيقة آلة حساسة جداً بورشة ستراديفار - يوس(*) . كان يحدث له من حين لآخر أن يشعر بهذا الإحساس المشير وكان واقفاً في كل مرة من أن الموجة في صدره تحمل حتمية منذرة بقدوم أمر ما عظيم وخارق قد يتجاوز أحلامه .

في تلك المرة كان مذهولاً من هذه الموجة وكذلك مندهشاً (في زاوية خفية من دماغه التي كانت تفلت من الدهول) : كيف كان يمكن لرغبته أن تحظى بمثل هذه القوة ، وأن يهرع الواقع بانقياد لنداء رغبته ، مفسحاً المجال لتحقيقها ؟ دون أن يكف عن الاندهاش من قدرته ، كان يتربص اللحظة التي سيصبح فيها النقاش أكثر حدة والتي سيفر فيها

(*) ستراديفار يوس : مخترع كامان .

من انتباه الفرمان . وما إن ارتأى أن تلك اللحظة جاءت ، حتى اختفى من القاعة .

الشباب الوسيم المعقود للراعين :

كان القسم الذي تجري فيه هذه المحادثة المرتجلة يشغل الطابق الأرضي من جناح جميل مبني (بالقرب من أجنحة أخرى) في حديقة المشفى النفسية . وإلى تلك الحديقة كان فليستشمان قد دلف لتوه . استند إلى جذع شجرة دلب ولاشعل سيكارة ، وتأمل السماء : كان الوقت في عز الصيف ، والعمود تمبق في الهواء ، والقمر الدائري معلق في السماء السوداء .

كان يرغم نفسه على تخيل الشخص الذي سيتبعه عما قليل : كانت الدكتوراة التي أشارت له للتو بالخروج ستنتظر أن يستغرق أصلعها في المحادثة أكثر من استغراقه في الشك ، ثم ستعتمد بلحشام إلى الإفصاح عن حاجة صغيرة خاصة تضطرها إلى التغييب لبرهة .

وماذا كان سيحدث بعد ذلك ؟ كان يفضل بعد ذلك أن لا يتخيل شيئاً . بدأت الموجة في صدره تندر بمغامرة وكان هذا يكفيه . صار واقعاً من حظه ومن نجمة حبه ومن الدكتوراة . كان وهو يتعلل بأطمئنانه (أطمئن أن ما زال حائراً قليلاً) يستسلم لسلبية ممتعة ، لأنه كان دائماً يشاهد نفسه بلامح الرجل المفري والمرغوب والمحبوب ، وكان يروق له انتظار المغامرات بلونعين معقودين (بلباقة) . كان واقعاً أن الراعين المعقودين يستثيران ويقتلن النساء والقدر .

من المهم بالتأكيد في هذه المناسبة ملاحظة أنه كان يحدث غالباً ، إن لم يكن دائماً ، لفليستشمان أن يشاهد نفسه مصحوباً دوماً بقرين بحيث أن وحدته كانت تصبح مسلية تملأ . في ذلك المساء على سبيل المثال ، لم يكن وحسب مستنداً إلى شجرة دلب ويدخن ،

بل كان يراقب في الوقت نفسه بتلذذ ذاك الرجل (الوسيم والفتي ،
المستند إلى شجرة داب ويدخن بلا مبالاة . استمتع طويلاً بهذا
المشهد وانتهى إلى سماع خطوات رشيقة أتت صوبه من الجناح .
تعمد أن لا يلتفت . سحب نفساً من سيكرته . ثم نفث الدخان وحدث
عينيه في السماء . عندما أصبحت الخطوات قريبة جداً ، قال بصوت
رقيق ومخادع : « كنت أعلم أنك ستأتين » .

البول :

أجابه المدير : « لم يكن شاقاً اكتشاف هذا . أفضل التبول في
الطبيعة أكثر من التبول في المباني الحديثة الكريهة . هنا ، عما قليل ،
سيريطني خيط دقيق مذهب بأعجوبة مع التربة ، مع العشب والأرض .
لنني تراب يا فليشثمان ، وسأعود إلى تراب خلال برهة ، جزئياً على
الأقل . التبول في الطبيعة هو طقس نعد به الأرض بالعودة إليها ذات
يوم كلياً » .

ظل فليشثمان صامتاً فسأله المدير : « وأنت لا جئت كي تنظر
إلى القمر ؟ » ظل فليشثمان صامتاً بإصرار فأضاف المدير : « أنت
غريب الأطوار يا فليشثمان ، لذلك أحبك كثيراً » فسر فليشثمان
كلمات المدير كسخرية وقال بنبرة كن يريد لها جافة : « دعني وشأني
مع القمر . أنا أيضاً جئت إلى هنا لكي أتبول .

— قال المدير متأثراً : يا صغيري فليشثمان : أفسر هذا كدليل
استثنائي على المحبة حيال رئيسك الكهل » .

واستقر كلاهما تحت شجرة الدلب لكي ينجزا عملية التبول التي
كان المدير يشبهها بطقس بحماسة لا تكل وبصور متجددة باستمرار .



الفصل الثاني

الشعب الوسيم الساخر :

كانا يعودان عبر الممر الطويل والمدير يحتضن كتفي طالب الطب وانما من ان هذا الاصلع الغيور قد كشف إشارة الدكتوراة وأنه يسخر منه بمناجاته الودية ! لم يكن يوسعه طبعاً إزاحة يد المدير عن كتفه ، ولم يزد ذلك إلا غيظاً . ثمة امر وحيد يواسيه : ذلك أنه كان ، وهو يغلي من الغضب ، يشاهد نفسه في هذا الغضب ، كان يشاهد تعبير وجهه نفسه : وكان مسروراً من هذا الشاب الحلق الذي يعود إلى قاعة المناوبة ، وبمياقة عامة ، سوف يبدو فجأة بشكل مختلف تماما : ساخرا ولاذما وشيطانيا .

حين دخلا إلى قاعة المناوبة ، كانت إليزابيت تقف وسط الحجرة وتهز وركيها بشكل مخيف ، مترنمة بأنغام لحن . كان الدكتور هافل يفض بصره فشرحت الدكتوراة لكي تستدرك ذعر القلامين الجدد : « إليزابيت ترقص . »

— اضاف هافل : إنها ثملة قليلاً » .

لم تكف إليزابيت عن هز خصرها ومملوجة صدرها امام وجه الدكتور هافل المطرق .

سال المدير : « اين تعلمت اذاً هذه الرقصة الجميلة ؟ »

اطلق فليشسمان المترع بالسخرية ضحكة علنية « اه ! اه ! اه !
رقصة جميلة ! اه ! اه ! اه !

— ردت إليزابيت على المدير : انه مشيهد رايتة في حانة لرقص
التعري في قيينا .

— اغتاط المدير برقة : حسنا ، حسنا ، منذ متى تتردد ممرضاتنا
على حانات لرقص التعري ؟

— قالت اليزابيت مماوجة صدرها حوله : هذا ليس ممنوعا رغم
كل شيء ابها المدير ! »

كان الغيظ يتدفق في جسد فليشسمان باحثا عن مخرج فقال :
« إنك في حاجة إلى البرومور وليس لتسكينك وليس لرقصة تعري .
سنتنهن إلى الاعتداء علينا .

— قاطعت اليزابيت وهي تماوج صدرها حول الدكتور هافل :
أنت ، ليس لديك شيء تخشى عليه . الأدمياء البليدون لا يسلونني .

— سال المدير يود : وهل اصجبتك رقصة التعري تلك ؟

— اصدقك القول ! كانت توجد سويدية ذات نهدين كبيرين ، لكن
لدي نهدين اجمل منهما بكثير ! (كانت تداعب صدرها وهي تقول هذا)
وكانت توجد ايضا فتاة تتظاهر بالاستحجام في رغبة الصابون في حوض
من الكرتون ، وخلصية تمارس العادة السرية أمام الجمهور ، هذا
هو افضل ما كان يوجد !

— قال فليشسمان دافعا التهكم الشيطاني إلى مداه : اه ! اه !
العادة السرية ، هذه بالضبط ما نحتاجين إليه ! »

حزن بشكل ردف :

كانت اليزابيت تواصل الرقص ، لكن جمهورها كان بالتاكيد جمهور أقل جمهرة بكثير من المشاهدين في حانة فيينا لرقص التعري : كان هافل يطرق رأسه والدكتورة تنظر بمكر وفليشسمان باستياء والمدير يتسامح أبوي . وكان ردف اليزابيت الذي يضيق عليه القماش الأبيض لمزور المعرصة يعبر الحجرة كشمس مدورة على نحو رائع ، لكنها شمس منطفئة وخامدة (مغلفة بوشاح أبيض) . شمس تحكم عليها النظرات اللامبالية والمتضايقه للأطباء الحاضرين بعدم أكثر من أثر للرءاء

جاءت اللحظة التي ظنوا فيها أن اليزابيت توشك على خلع ملابسها بالفعل قطعة تلو أخرى ، بحيث أن المدير تدخل بصوت قلق :
« لكن يا اليزابيت ! لسنأ هنا في فيينا ! »

— مما تخاف أيها المدير ؟! ستعرف على كل حال ما هي عليه امرأة عارية ! « أعلنت اليزابيت ثم التفتت من جديد نحو الدكتور هافل وهددته بنهديها : « حسنا يا عزيزي هافل ! ماذا يدور في هذا الرأس ؟ ارفع رأسك ! هل مالت أحد ؟ هل أنت في حداد ؟ انظر إلي ! إنني حية لست على حافة الموت ! ما زلت نابضة بالحياة ! إنني أعيش ! « وحين كانت تقول هذا ، لم يعد ردفها ردفًا بل الحزن نفسه ، حزن مجسم على نحو رائع كان يعبر القاعة راقصا .

قال هافل وعيناه مسمرتان على الأرضية الخشبية : « اعتقد أن هذا يكفي الآن يا إيزابيت .

— قالت إيزابيت : هذا يكفي ؟ لكنني أرقص لأجلك ! والآن سأقدم رقصة تعري ! رقصة تعري عظيمة ! « وفكت مئزرها المعقود على خصرها ، وبحركة راقصة ، ألقت على المكتب .

تكلم المدير من جديد وبخوف : « سيكون جميلا يا الزبايت ان
تقدمي لنا رقصة تعري ، لكن في مكان اخر . كما تعلمين ، نحن هنا
في المشفى » .

رقصة التعري العظيمة :

اجابت الزبايت : « احسن التصرف ايها المدير ! » كانت في
لباسها النظامي ، الأزرق الغامق ذي الياقة البيضاء ، وكانت تواصل
التزهيز .

وضعت بعد ذلك كفيها على وركيها وزلقتهما على امتداد الجذع .
رفعتهما فوق الرأس ، ثم تسلقت يدها اليمنى على امتداد ذراعها
اليسرى الرفوعة ويدها اليسرى على امتداد ذراعها اليمنى ، انتهت
بعد ذلك حركة الأذرع باتجاه فليشمان ، كما لو كانت تلقي صدارها
عليه . شعر فليشمان بالخوف وقفز ، فصاحت به : « ايها العفل ،
تركته يسقط ! »

أعادت بعد ذلك يديها إلى وركيها ، وزلقتهما على امتداد الساقين ؛
رفعت الساق اليمنى ثم الساق اليسرى وهي منحنية . نظرت بعد
ذلك إلى المدير وحركت الذراع اليمنى ملقية إليه بتنويرها الوهمية . مد
المدير يده وأحكم قبضته ، ثم أرسل إليها بيده الأخرى قبلة .

بضع هزات ايضا وبضع خطى ، ثم انتصبت الزبايت على رؤوس
أصابعها ، ولوت ذراعيها إلى الخلف وتشابكت أصابعها وسط ظهرها .
ثم سحبت الذراعين إلى الامام بحركات راقصة ، وداعبت الكتف
اليمنى باليد اليسرى والكتف اليسرى باليد اليمنى ، ومن جديد
قامت بحركة ذراع رشيقة ، هذه المرة باتجاه الدكتور هافل الذي بدوره
رد بحركة خجلة ومتضايقة من يده .

لكن اليزابيث أخذت تتمشى الآن في الغرفة بعظمة ؛ راحت تستعرض مشاهديها الأربعة الواحد ظو الآخر ، رافعة أمام كل واحد منهم العري الرمزي لجسدها . توقفت في النهاية أمام هافل ، وأخذت تماوج وركبها ، ثم زلقت يديها على امتداد جلعها وهي تنحني بخفة ، عندئذ (كما منذ قليل) ، رفعت أولاً ساقاً ، ثم الأخرى ، وانتصبت بانتصار ، رافعة يدها اليمنى بالسروال الوهمي بين الإبهام والسبابة . من جديد وبرشاقة ، قامت بحركة نحو الدكتور هافل .

كانت متفاخرة بعريها الوهمي ، لم تعد تنظر إلى أحد ، ولا حتى إلى هافل . صارت تنظر إلى جسدها المتموج وعيناها نصف مغمضتين ورأسها مائل جانباً .

تحطمت بعد ذلك وضعية الزهو وجلست اليزابيث على ركبتَي الدكتور هافل . قالت متثابثة : « إنني منهكة » . أمسكت كأس هافل وشربت جرعة . قالت لهافل : « دكتور ، اليس لديك أقراص لتنشيطي ؟ فرغم كل شيء لن أخلد إلى النوم !

— قال هافل : لاجك ، لدي كل ما تريد يا اليزابيث ؛ وانفضها عن ركبتيه وأجلسها على الكرسي ثم توجه إلى الصيدلية . وجد فيها منوماً فعالاً فاعطى منه قرصين إلى اليزابيث .

سالت : « هذا سينشطني ؟

— مثلما ادعى هافل « قال هذا الأخير .

كلمات وداع إيزابيث :

عندما ابتلعت إيزابيث القرصين ، أوردت الجلوس ثانية على ركبتَي هافل ، لكنه أبعد ساقيه فسقطت إيزابيث .

تأسف هامل لذلك في الحال ، لأنه لم يكن يقصد توجيه هذه الإهانة إلى إليزابيث والحركة التي قام بها كانت بالأحرى رد فعل عفوي سببه النفور الصادق الذي يشعر به من فكرة تلامس ردف إليزابيث بفخذه .

حاول إذا إنهاضها ثانية ، لكن إليزابيث كانت تتشبث بالأرض بكل ثقلها ، بإصرار نحبي .

استقر فليسنشمان أمامها : « أنت ثقلة وعليك الخلود إلى النوم » .

تاملته إليزابيث من أسفل إلى أعلاه باحتقار بالغ وقالت له : « مستمتعة بماسوشية مؤثرة لوجودها على الأرض » : « وغد ، أحقق » ومرة أخرى أيضا : « أحقق » .

حاول هافل من جديد إنهاضها ثانية ، لكنها تخلصت بعنف وانفجرت بالبكاء . لم يجد أحد شيئا ليقوله وكان نحيب إليزابيث يرتفع كعزف كمان في الحجرة المصمتة . بعد برهة مديدة ، خطرت للدكتورة فكرة الصغير بلطف . نهضت إليزابيث بوثبة واتجهت نحو الباب ، وعندما وضعت يدها على القبضة ، التفتت وقالت : « أوغاد . أوغاد . ليتكم تعلمون . نكنكم لا تعلمون شيئا . لا تعلمون شيئا » .

مرافعة المدير ضد فليسنشمان :

اصقب ذهاب إليزابيث صمت بلادر المدير أولا إلى قطعه : « كما ترى يا صغيري فليسنشمان . أنت تدعي بالشفقة حيال النساء . لكن إذا كنت تشعر بالشفقة حيال النساء ، لماذا لم تشعر بالشفقة حيال إليزابيث ؟

— اجاب فليسنشمان : بماذا يعني هذا ؟

— لا تتظاهر بانك لا تعرف شيئاً ! أخبرتك بذلك منذ قليل .
إنها مولهة بك !

— سال فليششمان : هل أستطيع شيئاً حياله ؟

— قال المدير : لا تستطيع شيئاً حياله . لكنك فظ ممها وتولها ،
وهذا تستطيع شيئاً حياله ، طيلة الأمسية لم تكن تهتم إلا بأمر واحد ،
بما كنت ستفعله ، وفيما إذا كنت ستنظر إليها وتبشيم لها وتقول
لها كلمة لطيفة . وتذكر ما قلته لها !

— رد فليششمان (لكن كان يوجد شك في صوته) : لم اقل لها
شيئاً مخيفاً جداً .

— تهكم المدير : لا شيء مخيف جداً . سخرت منها حين رقصت
مع أنها لم ترقص إلا لأجلك ، نصحتها بتعاطي البرمور ، قلت لها
بأن ما كان يمكنها أن تقوم به على نحو أفضل هو ممارسة العادة
السرية . لا شيء مخيف ! حين قامت برقصة التعري تركت صدارها
يسقط على الأرض .

— احتج فليششمان : أي صدار ؟

— قال المدير : صدارها . لا تنعاب . وفي النهاية أرسلتها للنوم ،
مع أنها تناولت اقراص ضد التعب .

— دافع فليششمان عن نفسه : لكنها سعت وراء هائل !

— قال المدير بقسوة : لا تتخايث . ماذا كنت تريد أن تفعل ،
ما دمت لم تكن تهتم بها ؟ كانت تستغفرك . ولم تكن ترغب إلا بشيء
واحد ، شذرات من غيرتك ، وبعد هذا تدعي أنك جنشلمان !

— قالت الدكتورة : دعه وشانه الآن . إنه فظ لكنه فتي .

— قال هائل : إنه رئيس ملائكة العقاب » .

الأدوار الميثولوجية :

قالت الدكتورة : « أجل ، هلمنا صحيح . انظروا اليه : رئيس ملائكة

وسيم ومخيف .

— لفت المدير الانتباه بصوت ناعم : إنها جمعية ميثولوجية حقيقية ، لأنك أنت* ، أنت ديانا ، باردة ورياضية وخبيثة .

— قالت الدكتورة : وانت ، أنت ستير* ، عجوز وخطيع وثرثار ، وهائل هو دونجوان . ليس عجوزاً لكنه كهل .

— اجاب المدير مائلاً إلى موضوعه منل قليل : هيا إذا ! هائل هو الموت »

نهاية الدونجوانات :

« إذا سألتموني هل أنا دونجوان او الموت ، مليء أن اتبنى رأي المدير ولو على مضض ، قال هائل وازدرد جرعة كبيرة . كان دونجوان فاتحاً ، بل الفاتح . فاتحاً عظيماً . لكنني أسالكم كيف تريدوني أن أكون فاتحاً في منطقة لا أحد يقاومكم فيها ، وكل شيء ممكن فيها ومباح ؟ انتهى عهد الدونجوانات . السليل الحالي للدونجوان لم يعد يشزو ، بل يجمع . شخصية الفاتح العظيم أعقبتها شخصية هاوي المجموعات العظيم ، لكن هاوي المجموعات لم يعد يشترك بشيء مطلقاً مع دنجوان .

(*) ستير : شخص خرافي نصفه الأعلى بشر ونصفه الأدنى مانز .

كان دونجوان شخصية تراجيدية . كان موصوفاً بالخطيئة . كان يائم
بمرح ويسخر من الله . كان منجداً وانتهى إلى الجحيم .

» كان دونجوان يحمل على كاهله عبئاً تراجيدياً ليس لدى هاوي
المجموعات العظيم أدنى فكرة عنه ، لأن كل ثقل في عالمه هو بلا وزن .
استحالت الكتل الصخرية إلى زغب . كانت نظرة في عالم القائع تحوي
ما تحويه الآن في عالم هاوي المجموعات عشر سنوات من الجب الجسدي
الأكثر موابلة .

» كان دونجوان سيداً ، بينما هاوي المجموعات عبد . كان دونجوان
يخرق بوقاحة الأعراف والقوانين . هاوي المجموعات العظيم لا ينفك
يسائر بخضوع وبعرق جبينه العرف والقانون ، لأن تنظيم المجموعات
» أصبح من الآن فصاعداً جزءاً من التهذيب واللياقة ، صار تنظيم
المجموعات يعتبر تقريباً بمثابة واجب . وإذا شعر بنفسه ملذناً ، فهذا ،
فقط « لائي لا آخذ إليزابيت .

» لا يربط هاوي المجموعات العظيم شيء بالتراجيديا ولا بالدراما .
أصبح الشبق ، الذي كان أصل المصائب ، بفضل أمرا شبيهاً بالافطوى
أو العشاء ، بجمع الطوايع ، بلعبة كرة الطاولة أو التبضع في المخازن .
أدخل هاوي المجموعات الشبق في الميدان المتبدل . صنع منه كواليس
ومنصات مسرح لن تحدث فيه أبداً الدراما الحقيقية . واأسفاه
يا أصدقائي ، هتف هاغل بنبرة مؤثرة ، غرامياتي (إذا سمحت لنفسني
بتسميتها كذلك) هي منصات مسرح لا يحدث فيه شيء .

» يا عزيزتي الدكتورة ويا عزيزي المدير . انتما قارنتما دونجوان
بالموت ، كطريفي تناقض . وهكذا كشفتما جوهر المشكلة بمحض الصدفة
وسهواً . انظروا ؛ كان دونجوان يجابه المستحيل . وهذا ما يعتبر
إنسانياً إلى درجة كبيرة . وبالقابل ، لا شيء يستحيل في مملكة هاوي
المجموعات العظيم ، لأنها مملكة الموت . هاوي المجموعات العظيم ، هو

الموت الذي جاء يسمى بنفسه إلى التراجيديا والدراما والحب . الموت
الذي جاء يسمى إلى دونجوان . دونجوان حي في النار الجهنمية
التي أرسله إليها الكوماندور . أما في عالم هاوي المجموعات العظيم الذي
تفرغ في فضائه الشهوات والمشاعر كريشة ، في ذاك العالم ، دونجوان
ميت حتما .

« هيا إذا يا سيدتي العزيزة ، قال هافل بحزن ، أنا ودونجوان !
هذا ما قد أقدمه لك أرى الكوماندور ، لك أحس فوق روعي بالثقل
الظيع للفتنة ، لأشعر بتزايد عظمة التراجيديا في نفسي ! هيا إذا
يا سيدتي ، إنني في أحسن الأحوال ، شخصية كوميدية ، وحتى هذه
لا أدرك بها لنفسي ، بل إلى دونجوان شخصياً ، لأنه على الخليفة
التاريخية لمسرح التراجيدي ، وحسب ، يمكنكم أيضاً أن تفهموا ، بطريقة
ما ، الكوميديا الحزينة لوجودي كمطارد للنسل ، الوجود الذي بدون
هذه العلامة ليس إلا رتبة تافهة ، ومشهد طبيعي ممل » .

إشارات جديدة :

سكت هافل بعد أن تعب من هذه الخطبة المسهية (التي ترك
المدير الناعس رأسه أثناءها ، يسقط على صدره مرتين) تكلمت الدكتورة
بعد فترة صمت مفعمة بالتأثر : « لم أكن أعلم يا دكتور أنك خطيب
فصيح . وصفت نفسك بسمات شخصية كوميدية ، رتبة وضجرة ،
كانك عديم الشأن ! ومع الأسف كانت الطريقة التي عبرت بها فائضة
النبيل قليلاً . إنها لبابتك اللعينة : تصف نفسك بالمتسول ، لكنك تختار
لهذه القابة كلمات أميرة ، لكي تصبح رغم ذلك اميراً أكثر من كونك
متسولاً . إنك غشاش عجوز يا هافل . مزهو حتى في اللحظات التي
تتمرغ بها في الطين . إنك فشاش قديم ودنيء » .

قهقهة فليسشمان بضحكة رنقة لأنه كان يظن في غمرة بهجته أنه
كشف في كلمات الدكتورة عن الاحتقار حيال هافل ، لذلك اقترب من

النأفة متشجعا من سخرية الدكتور ومن ضحكته الخاصة وقال بنفمة ممدودة : « يا له من ليل ! »

— قالت الدكتور : أجل . ليل ساطع . وهافل يمثل دور الموت ! هل لاحظت فقط يهافل أن جو الليل ساحر ؟

— قال فليشتمان : طبعاً لا . المرأة هي المرأة والليل يعادل ليلاً آخر ، الشتاء والصيف هما الشيء نفسه . الدكتور هافل يرفض التمييز بين الصفات الثنائية .

— قال هافل : لقد كشفتني تملأ ! »

خمن فليشتمان أن موعده هذه المرة مع الدكتور سيكون ناجحاً : كان المدير قد شرب كثيراً وكان النعاس الذي بدأ يستسلم له منذ بضعة دقائق يبدو أنه يضعف يفظته كثيراً . قل فليشتمان باحتشام « أوه ! مثانتني » وتوجه نحو الباب بعد أن رمق الدكتور بنظرة .

الفصل :

فكر أيضاً في الممر بسرور أن الدكتور أمضت الأمسية في السخريّة من الرجلين « المدير وهافل الذي وصفته للتو بكثير من اللبابة بالفشاش : وادهلته رؤية حالة متكررة كانت تدهشه كل مرة ، تملأ لأنها تتكرر بمثل هذا الانتظام : كان يعجب النساء وكن يفضلنه على الرجال المجريين ، وهذا ما كان يشكل في حالة الدكتور — وهي بوضوح امرأة متشددة فوق العادة ، ذكية ومتعجرفة (لكن نظرف) — انتصاراً جديداً ومفاجئاً .

اجتاز فليشتمان الممر الطويل وهو في تلك الحالة النفسية وتوجه نحو المخرج . كان قد وصل تقريباً إلى الباب الذي يقضي إلى الحديقة ، حين خرشت فجأة منخريه رائحة غاز ، توقف وشم . كانت منبعثة من الباب الذي يفصل الممر عن حجرة استراحة المرضى الصغيرة . أدرك فليشتمان فجأة أنه يشعر بخوف شديد .

كانت حركته الأولى هي الركض للبحث عن المدير وهائل ، لكنه قرر بعد ذلك وضع يده على مقبض الباب (بالتأكيد لأنه كان يفترض أن الباب سيكون موصداً ومغلقاً بالتراب) . لكن الباب انفتح في غمرة دهشته . كان مصباح السقف مضطرب وينير جسد امرأة عارية ومعدداً على الأريكة . ألقى فليسيثمان نظرة دائرية عبر الحجرة ووثب نحو سخان صغير . أدار صنبور الماء الذي كان مفتوحاً . ثم هرع إلى النافذة وفتحها على مصراعها .

ملاحظة بين قوسين :

(يمكن القول أن فليسيثمان تصرف بريادة جاش وبالتالي بسرعة بدبهة . مع ذلك ثمة أمر لم يلاحظه بما يكفي من رباطة الجاش . طبعاً ، ظل محققاً لبرهة مديدة في جسد إليزابيت العاري ، لكن كان يعتره خوف كبير بحيث أنه لم يستطع ، خلف حجاب هذا الخوف ، تبين ما يمكننا الآن الإستمتاع به بمنتهى التمثل ، مستفيدين من استرجاع مفيد .

كان هذا الجسد بهيئاً . كان مستلقياً على الظهر والرأس مائل قليلاً ، الكتفان متقاربان نوعاً ما ، والنهذان الجميلان يتزاحمان كاشفين من شكلهما الكتنز . إحدى الساقين معدودة والأخرى مثنية برشاقة بحيث كان بوسع المرء أن يشاهد امتلاء الفخذين الملفت للنظر ، واللون الأسود المعتم لشعر العانة الكث للغة) .

طلب النجدة :

بعد أن فتح فليسيثمان النافذة على مصراعها والباب ، وثب إلى الممر ونادى للمساعدة . وما أعقب ذلك جرى بفعالية ناجعة : تنفس اصطناعي ، مكالة هوائية لقسم الإسعاف ، وصول عربة نقل المرضى ، تسليم المريضة للطبيب المناوب ، جلسة تنفس اصطناعي جديدة ، عودة للحياة ، نقل دموي وفي النهاية ، تنفس الصعداء حين اتضح أن حياة إليزابيت أنقذت .

الفصل الثالث

كل واحد قال شيئاً :

حين خرج الأطباء الأربعة من قسم الإسعاف والقوا أنفسهم في
الساحة ، كانوا يبدون منهكين .

— قال المدير : « لقد أفسدت علينا حوارنا تلك الصغيرة
إليزابيت » .

— قالت الدكتورة : « النساء غير الراضيات يجلبن النحس دوماً » .

— قال هافل : « هذا غريب . ترتب عليها أن تفتح القار لكي نتبين
إنها جميلة القوام » .

عند هذه الكلمات ، نظر فليششمان (ملياً) الى هافل وقال :
« لم تعد لدي رغبة بالشرب ولا بالمسامرة . طابت ليلتكم » ، وتوجه نحو
مخرج المشفى .

نظرة فليششمان :

كان فليششمان يشعر بالإشمزاز من أحاديث زملائه . كان يرى
فيها برودة الرجال والنساء المتقدمين في السن ، وقساوة عمرهم
التي تنتصب أمام شبابه كحاجز منيع . لذلك كان يستمتع لأنه وحيد
وكان يذهب ماشياً ممداً لكي يتذوق نشوته تماماً : لم يكن يكف بخوف

عذب عن ترداد أن إليزابيث أشرفت على الموت وأنه كان المسؤول
عن ذلك .

لم يكن يجهل بالطبع أن الانتحار ينجم عادة عن كوكبة كاملة من
الأسباب وليس عن سبب واحد ؛ لكنه لم يكن يوسعه إنكار أن أحد تلك
الأسباب ، وبلا ريب السبب الحاسم ، كان هو ، مجرد وجوده
وسلوكه اليوم .

صار يتهم نفسه الآن بطريقة مؤثرة . أخذ يقول لنفسه بأنه كان
أنانياً في النظرة المزهوة بالمسرة على نجاحاته الفرامية . كان يتخيل
نفسه مضحكاً لأنه ترك نفسه ينهب بالاهتمام الذي أظهرته له الدكتورة .
كان يلوم نفسه لأنه جعل من إليزابيث مجرد شيء ، وإنه استخدمه
لصب جام غضبه عندما افترض المدير الغيور مواعده الليلي . بأي حق
عامل مخلوقة بريئة بهذا الشكل ؟

مع ذلك لم يكن طالب الطب الشاب انساناً ساذجاً ؛ فكل واحدة
من حالاته النفسية كُتبت تتضمن في ذاتها جمل للتأكيد والنفي ، بحيث
أن صوت المتهم الداخلي صار يرد الآن على صوت المدافع الداخلي : كانت
السخريات التي وجهها إلى إليزابيث غير لائقة حتماً ، لكنها بالتأكيد
ما كانت لتستتبع نتائج بمثل هذه التراخيدية لو لم تكن إليزابيث قد
تتمت به . والحال هذه ، هل كان يوسع فليستشمان فعل شيء إذا كانت
امراً مغرمة به ؟ وهل يصبح مسؤولاً بشكل آلي عن تلك المرأة ؟

توقف عند هذا السؤال الذي كان يبدو له المفتاح لكل سر الوجود
الانساني . توقف حتى عن المشي وصاغ الاجابة الأكثر جدية في العالم :
أجل كان قد اخطأ منذ قليل حين قلل للمدير بأنه غير مسؤول عما يسببه
بغير علمه ، هل كان بمقتوره فعلاً اختصار شخصيته إلى ما كان يدركه
ويعيه ؟ ألم يكن أيضاً جزءاً من دائرة شخصيته ما كان يحكم بغير وعي ؟
وأي شخص غيره يمكنه أن يكون مسؤولاً عن ذلك ؟ أجل ، كان مدنياً ؛

مذبذباً بحب إليزابيت له ؛ مذبذباً لجهله هذا الحب ؛ مذبذباً لرفضه له ؛ مذبذباً . ولولا قليل ، لقتل كائنات إنسانية .

نظرية المدير :

بينما كان فليسشمان يستسلم لحاسبة نفسه ، كان المدير وهافل والدكتور يهودون إلى قاعة المناوبة . لم يعد لديهم بالفعل رغبة في الشرب ؛ فلزموا الصمت البعض الوقت ؛ ثم قال الدكتور هافل : « ما الذي أمكنه أن يدور في رأس اليزابيت ؟ »

— قال المدير : ليست حالة عاطفية . حين يرتكب شخص ما حماقات من هذا النوع ، تمتع نفسي من أي أفعال . وفضلاً عن ذلك ، لو لم تكابر ولو أنك فعلت معها ما لا تتردد بفعله مع جميع النساء الأخريات ، لما حدث هذا .

— قال هافل : أشكرك على تحميلي مسؤولية انتحار .

— أجاب المدير : لكن دقيقين . ليس المقصود انتحاراً ، بل المقصود حفل انتحاري مدبر بحيث يتفادى الكلفة . عزيزي الدكتور ، عندما يريد المرء خنق نفسه بالغل يبدأ بإغلاق الباب بالفتاح . والأجدر من هذا ، أن يهتم المرء بسد كل الشقوق لكي يتم تأخير اكتشاف وجود الغاز ما أمكن . لكن اليزابيت لم تكن تفكر في الموت ، كانت تفكر بك .

« الله أعلم منذ كم من الأسابيع كانت تستمتع بفكرة أنها ستكون برفتك في المناوبة الليلية ، ومنذ بداية الأمسية ركزت انتباهها عليك بفجور . لكنك عانيت . وكلما أعنت في عنادك ، أعنت هي في الشرب وأعنت في إظهار اغرائها : تكلمت ورقصت وأرادت القيام برقصة تعري ... »

« انتبه ، اتساءل فيما إذا كان لا يوجد رغم كل شيء أمر ما مؤثر في ذلك . حين أدركت أنه لم يكن يوسعها جذب انظارك ولا سمعك ، راهنت بكل شيء على حاسة شجك وفتحت الفاز . وقبل أن تفتح الفاز خلعت ملابسها . فهي تعلم بأن لديها جسداً جميلاً ، وأرادت إزعامك على التاكيد بنفسك من ذلك . تذكر ما قالته وهي تغادر : ليتكم تعلمون . إنكم لا تعلمون شيئاً . لا تعلمون شيئاً . ما أنت تعلم الآن إن إليزابيث وجهاً قبيحاً لكن لها جسداً جميلاً . تأكدت من ذلك بنفسك . أنك تدرك أن محاكمتها ليست متهافة جداً . واتساءل فيما إذا ستستلم الآن » .

هو هافل كتفيه وقال : « هذا ممكن

— قال المدير : إنني واثق من ذلك » .

نظرية هافل :

« أيها المدير ، ما تقوله قد يبدو مقنعاً ، لكن ثمة عيب في محاكمتك : إنك تبالغ تقدير دوري في هذه القضية . لأنني لست المقصود . فرغم كل شيء لست الوحيد الذي رفض النوم مع إليزابيث . لم يكن أحد يرغب بالنوم معها .

« منذ قليل ، حين سألتني لماذا لم أكن أريد الحصول على إليزابيث ، أجبتك بهذباتنا ما عن روعة حرية الاختيار وعن حريتي التي أحرص على الحفاظ عليها . لكنها لم تكن سوى أقوال عابثة هادفة لتنويه الحقيقة التي هي جد مختلفة وليست جميلة إطلاقاً : فإذا رُقِضت إليزابيث ، فذلك لأنني عاجز عن التصرف كرجل حر ، لأن الدرّجة السائدة هي عدم النوم مع إليزابيث . لا أحد ينام معها ، ولو نام معها ، لما اعترف بذلك أبداً لأن كل الناس كانوا سيسخرون منه . الدرّجة هي تتين مخيف وقد أذمنت لها بخضوع . لكن إليزابيث امرأة

ناضجة ، وهذا ما اطار صوابها . وربما ما اطار صوابها اكثر من كل شيء
هو انني ارفضها ، لان الجميع يعلم بانني آخذ كل شيء . لكن الدُرَجَة
اغلى عندي من صواب إليزابيت .

« وانت محق ايها المدير : إنها تعلم بان لها جسداً جميلاً ، وكانت
تحسب ان هذا الوضع غير مقبول وجائر فأرادت الاحتجاج . تذكر أنها
لم تكف طيلة الأمسية عن جذب الانتباه الى جسدها . عندما تكلمت عن
راقصة التعري السويدية التي شاهدها في فيينا ، داعبت نهديها
وأعلنت أنهما أجمل من نهدي الراقصة السويدية . وتذكر : اجتاح
نهداها وردفها هذه الحجرة طيلة الأمسية كجمهور متظاهرين . اتكلم
جداً ايها المدير ، كانت مظهرة .

« وتذكر رقصة تعريها ، تذكر كيف كانت تؤديها ! ايها المدير ،
إنها رقصة التعري الأكثر حزناً التي شاهدها حتى الآن . كانت تعري
بائع عمل ، لكن دون ان تتحرر من الرداء المقيت لزيها كمرضة ، كانت
تعري ، لكنها لم تكن تستطيع التعري . ومع أنها تعلم تماماً بأنها لن
تعري ، كانت تعري لأنها كانت تريد أن تبلغنا حزنها والرغبة الخيالية
بالتعري . ايها المدير ، لم يكن ذلك تعرياً ، بل كان أغنية رداء التعري ،
أغنية عن استحالة التعري ، عن استحالة ممارسة الحب ، عن استحالة
الحياة ! وحتى هذا ، لم نرغب بسمعه ، كنا نطاطيء رؤوسنا ونظواهر
بعدم الإكتراث .

— هتف المدير : اوه ، زير رومانسي ! هل تعتقد حقاً أنها كانت
تريد الموت ؟

— قال هافل : تذكر ما قالته لي وهي ترقص ! قالت لي : ما زلت
حية ! ما زلت نايضة بالحياة ! هل تتذكر ؟ منذ اللحظة التي بدلت فيها
بالرقص ، كانت تعلم ما ستفعل .

— ولماذا أرادت ان تموت عارية تماماً ، لماذا ؟ كيف تفسر ذلك ؟

— كانت تريد المدخول الى احضان الموت كما تدخل الى احضان عاشق . لهذا تعرت وصفت شعرها وتجملت ...

— ولهذا لم تقفل الباب بالفتح ، اليس كذلك ؟ ارجوك ، لا تحاول إقناع نفسك بأنها كانت تريد الموت حقاً .

— لعلها لم تكن تعلم بالضبط ما تريد . هل تعلم أنت نفسك ماذا تريد ؟ من منا يعلم ما يريد ؟ كانت تريد الموت ولم تكن تريده . كانت تريد الموت بمنتهى الصدق ، وكانت تريد في الوقت نفسه (بمنتهى الصدق أيضاً) لإجراء التنفيذ الذي يقوده الى الموت ، والذي كانت تشعر بعظمته . أنت تدرك تماماً أنها لم تكن تريد أن يشاهدها أحد عندما ستصبح شاحبة تملأ وعفنة ومشوهة من الموت . كانت تريد أن تبدي لنا جسدها ، الجميل جداً ، والمبهرق القدر كثيراً ، الذي كان ينطلق بكل إهته للزواج مع الموت ؛ كانت تريد في تلك اللحظة الحاسمة على الأقل أن نرغب بذلك الجسد في الموت وأن تشتبهه .. » .

نظرية الدكتوراة :

بدأت الدكتوراة التي كانت قد سكنت حتى ذلك الحين وأصفت بانتباه الى الطبيب : « يبدو لي ما قلتاه كلاكما منطقي ، كما يمكن لإمرأة تطوره . ونظريتنا كما بعد ذاتها مقنعتان بما فيه الكفاية وتتمل عن معرفة عميقة بالحياة . ليس فيهما إلا عيب واحد هو أنهما لا تحتويان على ذرة حقيقة . لم تكن اليزابيت تفكر في الانتحار ، لا في الانتحار الحقيقي ولا في الانتحار المصطنع . ولا في أي انتحار » .

استمعت الدكتوراة لبرهة بتأثير كلماتها وتابعت : « سادتي ، من الواضح أنكما تشعران بالإثم . حين عدنا من قسم الاسعاف ، تجنبتما حجرة الراحة . لم تكونا تريدان رؤيتها ثانية . أما أنا فقد تفحصتها بعناية بينما كنتما تقومون بإجراء التنفس الاصطناعي لإليزابيت . كانت

توجد ركوة قهوة على السخان . وضعت الزبائيت الماء للتسخين كي
تعد لنفسها قهوة ، وغفت . غلى الماء وأطفاً اللهب .

عاد الطبيب الى حجرة الراحة مع الدكتورة . كان ذلك صحيحاً ،
كانت توجد ركوة قهوة على السخان وحتى بقي عليه قليل من الماء .

دهش المدير وقال : « لكن في هذه الحالة ، لماذا كانت عارية تماماً ؟

— قالت الدكتورة : انظر جيداً » وأشارت الى زوايا الحجرة : كان
الثوب الازرق الشاحب منشوراً على الارض تحت النافذة ، وكانت حمالة
النهدين تتدلى معلقة على الصيدلية ، والسرورال الداخلي الالبيض القبي
أرضاً في الزاوية المقابلة . « رمت الزبائيت ملابسها في كل الزوايا ،
وهذا ما يثبت أنها أرادت ولو لوحدها إجراء حفلة رقصة التعري التي
أرغبت أيها المدير أن من الحكمة منعها !

« عندما تعرت تماماً » شعرت بنفسها متعبة بدون شك . لم يكن
هذا يوافقها ، لأنها لم تكن قد تخلت عن آمالها في هذه الليلة . كانت تعلم
أننا سنغادر في النهاية وأن هافل سيمضى وحيداً . لهذا طلبت أقراصاً
منشطة . كانت تريد أن تحضر لنفسها القهوة فوضعت الركوة على
السخان . بعد ذلك ، نظرت من جديد إلى جسدها ، فأثارتها ذلك . يا
سلاطي ، كانت لدى الزبائيت مزية عليكما . لم تكن ترى رأسها . كانت
إذا بالنسبة لنفسها جميلة بدون عيب . أثارتها جسدها فتعددت على
الأريكة بشهوانية . لكن من الواضح أن النعاس فاجأها قبل اللذة .

— قال هافل : بالتأكيد . لا سيما أنني أعطيتها منومات !

— قالت الدكتورة : هذا من لطفك . إذا ، هل يوجد شيء أيضاً غير

وأوضح ؟

— قال هافل : أجل ، تذكرني ما قالت له لنا : لست على حافة الموت !
ما زلت نابضة بالحياة ! أنا أعيش ! وهذه الكلمات الأخيرة : ليتكم تعلمون
شيئاً . لكنكم لا تعلمون شيئاً . قالتها بطريقة مؤثرة جداً ، كما لو كانت
كلمات وخلاص .

— قالت الدكتورة : هيا يا هافل . كانك لا تعلم بأن تسعاً وتسعين
في المائة من الكلمات التي يتفوه بها المرء هي كلمات عابثة . هل تتكلم أنت
نفسك في معظم الأحيان لأجل شيء آخر غير الكلام ؟ » .

ترثر ، لأطباء لبعض الوقت أيضاً ، ثم خرجوا ، صافح المدير
والدكتورة هافل وابتعدا .

كان الأريج يعبق في النسيم الليلي :

وصل فليشتمان أخيراً الى طريق الضاحية التي يسكن فيها عند
والديه في فيلا صغيرة محاطة بحديقة . فتح الشبك ، ودون أن يذهب الى
باب المدخل ، جلس على مقعد تنحني فوقه ويرود رعتها والدقة بعناية .

كان الأريج يعبق في نسيم الصيف الليلي وكلمات « مذنب »
« أنانية » « محبوب » ، « موت » تدور في صدر فليشتمان وتملؤه
بسعادة غامرة . كان يشعر أن أجنته تنمو له في ظهره .

أدرك في هذا الفيض من البهجة الحزينة أنه كان محبوباً كما لم يكن
كذلك قط . بالطبع كانت عدة نساء قد قلمن له أنفاً براهين ملموسة على
مشاعرهن ، لكنه صار يرغم نفسه الآن على الصراحة القاسية : هل كان
ذلك دوماً حباً ؟ ألم يكن يستسلم للأوهام ؟ ألم يكن يحدث له أن يتخيل
أكثر مما هو موجود في الحقيقة ؟ ألم تكن كلارا على سبيل المثال منتفعة
أكثر من كونها عاشقة ؟ ألم تكن تحرص على الشقة التي كان على وشك
أن يزودها بها أكثر مما كانت تحرص عليه ؟ كان كل شيء يبدو باهتاً
إزاء تصرف إليزابيت .

أخذت كلمات كبيرة تعبق في الهواء وراح فليستثمان يقول لنفسه
بأنه ليس للحب سوى معيار وحيد : الموت . في غاية الحب الحقيقي يوجد
الموت ، ووحده الحب الذي يوجد الموت في غايته هو الحب .

بدا الأريج يعبق في النسيم وصار فليستثمان يتسائل : أي انسان
سيحبه يوماً مثل تلك المرأة القبيحة ؟ لكن ما هو الجمال والقبح إزاء
الحب ؟ ما هو قبح الوجه إزاء عاطفة كان سموها يعبر عن المطلق ؟

(المطلق ؟ أجل . فليستثمان هو مراهق القرية ، منذ قليل في عالم
الراشدين المضطرب . يبدل ما يوسعه لكي يفوي النساء ، لكن ما يبحث
عنه هو على الأخص الاحتضان المواسي ، الأبدى ، المختلص ، الذي
سينقلده من النسبية الفظيعة لعالم اكتشفه حديثاً) .

* * *

الفصل الرابع

عودة الدكتوراة :

كان الدكتور هافل مستلقياً منذ بضع لحظات على الأريكة ، تحت
غطاء قطني رقيق ، حين سمع طرقات على الزجاج . لمح وجه الدكتوراة
في ضوء القمر . فتح النافذة وسال : « ماذا يحدث ؟ » .

— قالت الدكتوراة : افتح لي ، وتوجهت بمشية رشيدة نحو باب
الجنال .

زور هافل قميصه ، ثم اطلق تنهيدة وخرج من الحجرة .

عندما فتح باب الجنال ، تقدمت الدكتوراة دون أن تعطي مزيداً
من الإيضاحات ، وحين جلست على مقعد في قاعة المناوبة ، مقابل هافل ،
أخذت تشرح بأنها لم تستطع العودة إلى منزلها ، وأنها شعرت بالقلق
على نحو مخيف ، وأنها لن تستطيع النوم وكانت تلتبس من هافل حديثاً
قصيراً آخر لكي تسترد هدوءها .

لم يكن هافل يصدق كلمة واحدة مما تقوله الدكتوراة وكان
على درجة من التهلب (أو التهور) كافية من أجل أن يظهر ذلك .

لهذا قالت له الدكتوراة : « بالتأكيد أنت لا تصدقني ، لأنك واثق
من انني لم آت إلا للنوم معك » .

أوما الدكتور بالنفي ، لكن الدكتورة تابعت : « طبعاً ، دونجوان
مفرور ! حللاً تشاهدك امرأة ، فاتها لا تفكر إلا بهذا . وأنت ، تنجز مهمتك
البائسة مكرهاً ومثمناً » .

أوما هافل من جديد بالنفي ، لكن الدكتورة تابعت بعد أن أشعلت
سيكلرة ونفثت الدخان بلا مبالاة : « مسكينى دونجوان ، لا تخش شيئاً .
لم آت لكى لأزعجك . لا شيء مشترك بينك وبين الموت . كل ذلك ليس إلا
مفارقت عزيزنا المدير . فأنت لا تحصل على كل شيء ، لسبب وجيه
هو أنه ليست كل النساء مستعدات للاستسلام . فانا على سبيل المثال
محصنة تماماً ضدك ، يمكننى أن أمدك بذلك .

— أهدا ما جئت لتقوله لى ؟

— ربما . جئت لأواسيك ، لأقول لك بأنك لست كالموت . وإني
لن أترك نفسي مرضة للاستيلاء . » .

أخلاقية هافل :

قال هافل : « هذا لطف منك ، لطف ألا تستسلمى وإن تأتى لتقولى
لى ذلك . أنك محقة ، لا يربطني شيء مع الموت . فالأمر ليس فقط لى
لن أحصل على إيزابيت ، بل لن أحصل عليك أيضاً .

— علقيت بالدكتورة : أوه !

— لا أعنى بذلك لا تعجبيننى . بالعكس تماماً .

— قالت الدكتورة : رغم كل شيء .

— أجل . أنت تعجبيننى كثيراً .

— إذا ، لماذا لا تريد الحصول على ؟ هل لأننى لا أهتم بك ؟

— قال هافل : لا ، اظن ان لا علاقة لهذا .

— إذ ، لماذا ؟

— لانك عشيقة المدير .

— ويعد ؟

— المدير غيور ، قد يحزنه هذا .

— قالت الدكتورة ضاحكة : وهل لديك هواجس ضمير ؟

— قال هافل : كما تعلمين ، لدي الكثير من المغلغات الفرامية مع النساء في حياتي ، بحيث انني لا اقدر ، نتيجة لها ، إلا الصداقة الدورية هذه الصداقة التي لا تطلقها حماقة الشهوانية هي القيمة الوحيدة التي عرفتھا في حياتي .

— هل تعتبر المدير بمثابة صديق ؟

— لقد فعل المدير الكثير من أجبي .

— أجابت الدكتورة : وفعل أيضاً الأكثر لاجلي .

— قال هافل : هذا ممكن ، لكن ليس المقصود امتنان ، إنه صديق وهذا كل ما في الأمر . انه رجل رائع . ويحرص عليك . لو حاولت الحصول عليك ، لاضطرت لاعتبار نفسي وغداً » .

المدير المستقلب :

قالت الدكتورة : « لم أكن اتوقع ان اسمع من فمك مثل هذا التقرير المتحمس جداً للصداقة ! اكتشف فيك مظهراً جديداً تماماً

بالنسبة لي وغير متوقع مطلقاً . لا تتمتع وحسب ، على غير المتوقع ،
بملكة الحس ، لكنك تستخدم هذه الملكة (وهذا مؤثر جداً) حيال سيد
مسن ، أضيف ومنتوف الريش لا يتبين المرء فيه إلا المضحك . هل لاحظت
ذلك منذ قليل ؟ هل شاهدت كيف يستلفت الأنظار باستمرار ؟ يريد أن
يبرهن دائماً على أمور لا يمكن لأحد تصديقها .

« يريد أن يبرهن أولاً على أنه ظريف . أنت سمعته . امنسى
الأمسية في الكلام لكي لا يقول شيئاً ، كان يسلي المتفرجين ، ويمبر بكلام
بارع مثل : الدكتور هافل كالوت ، ويختلق المفارقات من يؤس الزواج
السعيد (ما ينوف عن المائة مرة وأنا اسمعه يردد هذه النغمة !) كان
يحاول خداع فليشسمان (كان ذلك يقتضي الظرف) .

« يريد ثانياً أن يحتسب شخصاً شهماً . وفي الحقيقة ، يعقت أي
شخص ما يزال لديه شعر على رأسه ، لكنه يضرر العلماء في نفسه . كان
يمدحك ويمدحني وكان ابويًا ورفيقًا مع إليزابيت ، وحين حدع
فليشسمان حرص على ألا يتبين فليشسمان ذلك .

« ثالثاً وهو الأهم ، يريد البرهنة على أنه لا يقاوم ، يحاول بياس
إخفاء سحنه «اليوم تحت مظهره القديم ، الذي لم يعد موجوداً مع
الأسف والذي لم يعد أي منا يتذكره . هل شاهدت كيف تلدع به بمهارة
لكي يقص علينا حكاية تلك العاهرة الصغيرة التي لم تكن ترغب به ، فقط
لكي يستحضر من تلك المناسبة وجهه القديم وينسى هكلنا صلعه المحزن»

دفاعاً عن المدير :

أجاب هافل : « كل ما تقولينه صحيح تقريباً يا سيدتي العزيزة .
لكني لا أرى في ذلك إلا اسباباً إضافية وأسباباً وجيهة لحب المدير ، لأن
كل هذا يخصني أكثر مما تظنين . لماذا تريدني أن أسخر من صلح لن
أفقت منه ؟ لماذا تريدني أن أسخر من ذلك الجهد المثابر للمدير كي
لا يكون ما هو عليه ؟ .

« أما ان يقبل رجل عجوز البقاء على ما هو عليه ، أي هذه الفضلة
المثيرة للرئاء من نفسه ، أو لا يقبل . لكن ماذا عليه أن يفعل إن لم يقبل ؟
لا يبقى أمامه إلا التظاهر بأنه ليس ما هو عليه ، لا يبقى أمامه سوى
أن يخلق بواسطة التصنع المضي ، ما لم يعده وما ضيعه ، أن يخلق
فرحه وحيويته ووديته . باحياء صورة شبابه والسعي للانلماج بها
واستبدالها بنفسه . إنني أرى نفسي في كوميديا المدير هذه ، فهو صورة
مستقبلي . هكذا يبقى لي ما يكفي من القوة لرفض الاستسلام الذي هو
بالتأكيد شر اسوأ من تلك الكوميديا المحزنة .

« ربما انت على دراية بلعبة المدير . لكنها لا تزيدني إلا محبة له ،
ولن أستطيع أبداً إيلامه ، وهو ما ينجم عنه أنني لن أستطيع أبداً
النوم معك » .

جواب الدكتور :

اجابت الدكتورة : « عزيزي الدكتور ، توجد اختلافات بيننا أقل
مما تظن . أنا أيضا أحبه . أنا أيضا أشفق عليه ، تماما مثلك . ومدينة
له أكثر منك . فلواه ، فلواه ، لما حصلت على مثل هذه الوظيفة الجيدة
(أنت تعلم ذلك جيدا) وكل الناس يعلمونه أكثر مما ينبغي) أنت تظن
أنني أخدعه ؟ وأنني أغشه ؟ وأن لدي عشاقاً آخرين ؟ بأي فرح سيبلفه
الناس بذلك ! لا أريد إيلام أحد ، لا هو ولا نفسي ، وأنا بالتالي أقل
حرية مما تخيل . إنني مقيدة تماماً . لكنني مسرورة لأن كل واحد مثا
فهم الآخر جيداً . لأنك الرجل الوحيد الذي يمكنني معه أن أسمح
لنفسى بخيانة المدير . في الحقيقة ، أنت تحبه بإخلاص ولا ترغب إطلاقاً
بإيلامه . ستكون كتماً تماماً . يمكنني الوثوق بك . يمكنني إذا النوم
معك .. » وجلست على ركبتى هافل ، واخذت تحل أزراره .

ماذا فعل الدكتور هافل ؟

ماذا كان بوسعه أن يفعل ...

الفصل الخامس

في دوامة المشاعر النبيلة :

أقبل الصباح بعد الليل ونزل فليستشمان الى الحديقة لكي يقطف
منها باقة ورد . ثم استقل الترام إلى المشفى .

كانت لاليزابيت حجرة خاصة في قسم الاسعاف . جلس
فليستشمان عند وسادة سريرها ، وضع الباقة على طاولة السرير
وامسك يد إيزابيت لكي يجس نبضها .

سألها بعد ذلك : « هل تتحسنين ؟ »

— قالت إيزابيت : أجل «

وقال فليستشمان بصوت يفيض بال عاطفة : « ما كان يجب
عليك ارتكاب حماقة كهذه يا عزيزتي .

— قالت إيزابيت : انك محق ، لكنني غفوت . وضعت الماء
للتسخين كي أهد لنفسي القهوة وغفوت كالحمقاء » .

أخذ فليستشمان يتأمل إيزابيت بلهول ، لأنه لم يكن يتوقع مثل
هذا الكرم منها : كانت تريد إغفائه من تبكيت الضمير ، لم تكن تريد
إرهاقه بحبها وكانت تنكر هذا الحب !

دأب وجنتيها ، وأخذ يرفع الكلفة معها وقد أثرت مشاعره :
« أعرف كل شيء . لست بحاجة للكذب ، لكنني أشكرك على أكرامك » .

كان يدرك أنه لن يستطيع أن يجد لدى أبة امرأة أخرى هذا
القدر من النبل والتفاني والاخلاص ، وكاد أن يخضع لضغط الاغراء
ويطلب منها أن تصبح زوجته . لكنه تمالك نفسه في اللحظة الأخيرة
(لدى المرء دوماً متسع من الوقت لتقديم طلب زواج) وقال فقط :

« إليزابيث ، إليزابيث ، عزيزتي . لأجلك جلبت هذه الورود » .

حدثت إليزابيث في فليسشمان بهيئة مخبولة وقالت : « لأجلي ؟

— أجل لأجلك . لأنني سعيد لوجودي معك الآن . لأنني سعيد
من أنك موجودة يا إليزابيث . لعلمي أحبك . لعلمي أحبك كثيراً . هذا
بالتأكيد سبب إضافي لكي لا نذهب أبعد من ذلك . أظن أن رجلاً وامرأة
يتحليان أكثر عندما لا يعيشان سوياً وعندما لا يعرف أحدهما عن الآخر
إلا امرأة واحداً ، أنه يعيش ، وعندما يكون كل واحد منهما ممتناً للآخر
لأنه يعيش ولأنهما يعلمان أنهما يعيشان . وهذا يكفيهما لكي يكونا
سعيدين . أشكرك يا إليزابيث ، أشكرك على عيشك »

لم تكن إليزابيث تفهم شيئاً من ذلك لكنها كانت تبسم بابتسامة
مفتبطة ، بابتسامة بلهاء ، مفعمة بموجة سعادة وموجة أمل .

ثم نهض فليسشمان ، وشد بيده على كتف إليزابيث (دلالة
حب دفين ومكنون) استدار وخرج .

عدم تأكيد كل الأشياء :

قال المدير للدكتورة وهافل عندما اجتمعوا سوياً في القسم :
« لقد وجدت بالتأكيد زميلتنا الجميلة ، التي تتألق تماماً بالشباب

هذا الصباح ، التفسير الأصوب للأحداث ، وضعت إليزابيث المساء
التسخين كي تمد لنفسها القهوة وغفت . على أي حال ، هذا ما تزعمه

— قالت الدكتورة : أنتم ترون .

— أجاب المدير : لا أرى شيئاً البتة . في نهاية المطاف لا أحد
يعلم شيئاً مما جرى . ربما كانت ركة القهوة موجودة من قبل على
السخان . فإذا كانت إليزابيث تريد الانتحار بالفاز ، لماذا كانت سترفع
الركوة ؟

— علقت الدكتورة : لكنها شرحت لك كل شيء !

— بعد الكوميديا التي مثلتها علينا والخوف الذي سببته لنا ،
لا يدهشكما أن تحاول جعلنا نعتقد أن كل شيء حصل بسبب ركة .
لا تنسوا أن التقدم على محاولة انتحار في هذا البلد يرسل بشكل آلي إلى
مشفى المجانين للعلاج . هذا الاحتمال لا يعجب أحداً .

— قالت الدكتورة : هل تستهيك قصص الإنتحار أيها المدير ؟

— قال المدير ضاحكاً : أتعنى لو أن ضمير هافل يعليه مرة واحدة .

نعم هافل :

التقط ضمير هافل الآثم من التعليق التافه للمدير ثانياً رمزاً كانت
السموات تمليه عليه سراً فقال : « المدير محق . لم تكن بالضرورة
محاولة انتحار ، لكنها ربما كانت كذلك . فضلاً عن هذا ، إذا أمكنني
التكلم بصراحة ، لا ألوم إليزابيث . أخبروني ، هل توجد في الحياة
قيمة واحدة مطلقة تنص على أنه يمكن اعتبار الانتحار مرفوضاً من حيث
المبدأ ؟ الحب ؟ أم الصداقة ؟ أؤكد لك أن الصداقة ليست أقل هشاشة
من الحب وأنه لا يمكن للمرء أن يعول بشيء على الصداقة . أم حب

الذات على الأقل ؟ أتمنى ذلك . أيها المدير ، قال هافل بحماسة تقريبا .
وكان هذا يرن بمثابة ندم ، أقسم لك على أنني لا أحب نفسي إطلاقاً .

— قالت الدكتوراة بليستاسمة : سادتي ، إذا كان هذا ينجمل حياتكم ،
إذا كان هذا ينقذ نفوسكم ، لنقرر أن الزبايت أرادت الانتحار حقاً .
هل اتفقنا ؟ »

نهاية سعيدة :

قال المدير : « هذا يكفي . لنغير الموضوع . تلوث نقاشاتك يا هافل
هواء هذا الصباح الجميل ! إنني أكبرك بخمسة عشر عاماً . إنني سيء
الحظ لأنني سعيد في الأسرة ، أي لأنني لا أستطيع الطلاق . وأنا تemis
في الحب لأن المرأة التي أحبها مع الأسف ليست إلا هذه الدكتوراة ! ومع
ذلك ، أنا سعيد على هذه الأرض ! »

— قالت الدكتوراة للمدير بحنان غير عادي : جيد ، جيد جداً . أنا
أيضا سعيدة على هذه الأرض » .

انضم فليسمان في هذه اللحظة إلى مجموعة الأطباء الثلاثة وقال :
« خرجت لتوي من غرفة الزبايت . إنها حقاً فتاة شريفة إلى أبعد حد .
أكرت كل شيء . وتتحمل كل شيء » .

— قال المدير ضاحكاً : انتم ترون جيداً . ولولا قليل ، لدفعنا
هافل جميعاً إلى الانتحار .

— قال الدكتوراة : طبعاً « وافتربت من النافذة . « سيكون النهار
جميلاً أيضاً . السماء في غاية الصفاء . ما رأيك يا فليسمان ؟ »

منذ بضعة لحظات ، كان فليسمان يلوم نفسه تقريبا على تصرفه
بنفاق متخلفاً من المشكلة بباقة ورد وبضع كلمات جميلة ، لكنه صار

يهنيء نفسه الآن على عدم تسرعه في اتخاذ القرار. التقط إشارة الدكتوراة وفهمها . كان خيط المغامرة على وشك الاستمرار من النقطة التي انقطع عندها في الأمس ، حين أفضلت رائحة الغاز موعد فليشتمان مع الدكتوراة . ولم يتمالك فليشتمان نفسه عن الابتسام للدكتوراة ، حتى على مرأى من الدكتور الفيور .

تستمر الحكاية إذاً من حيث انتهت البأحة ، لكن فليشتمان يظن أنه يعود إليها أكبر سنًا بكثير وأشد موداً . فخلفه يقف حب عظيم كالموت . يشعر بموجة تكبر في صدره ، وهي الموجة الأكثر ارتفاعاً والأشد بأساً مما عرفه من قبل . لأن ما يشهده بمنتهى الشهوانية ، هو الموت : الموت الذي قدم له هدية ؛ موت ساطع ومنعش .



**فليخل الاموات القدامى
المكان للاموات الجدد**

كان يعود إلى منزله سالكاً طريق مدينة بوهيميا الصغيرة التي يسكنها منذ عدد لا بأس به من السنين ، مستسلماً لحياة لا فائدة ترجى منها ، ولجيران ترفارين وفضافة مملّة تجدد به في المكتب ، وكان يسير بلا مبالاة (مثلما يمشي المرء على طريق مئات المرات المتتالية) حتى كاد يخطئها . لكنها تعرفت إليه من بعيد ، وفيما تتقدم للاقائه ، كانت تنظر إليه بابتسامة آلت في اللحظة الأخيرة ، عندما تحاذينا ، إلى إفلات مفصلة في ذاكرته وجلبته من ومنه .

قال : « لم أفلح في التعرف عليك » لكنه كان اعتلوا أرضاً أحالهما في الحال إلى موضوع مرهق كان الأجدر تجنبه : لم يلتقيا منذ خمسة عشرة عاماً وقد هرم كلاهما . سألت : « هل تغيرت كثيراً ؟ » فأجابها بالنفي ، ومع أن هذه كذبة ، فإنها لم تكن كذلك تماماً ، لأن هذه الابتسامة المخبوءة (التي تعبر بحياء وتواضع عن صعوبة الفرح الأبدي) كانت تأتيه حتى الآن عبر مسافة سنوات عديدة ، دون تغير ، وكانت تقلقه : لأن هذه الابتسامة تذكره بهيئة هذه المرأة القديمة بوضوح اضطره إلى بذل جهد كي ينسى تلك الابتسامة ويرى هيئتها كما أصبحت عليه الآن : إنها امرأة عجوز تقريباً .

سألها عن المكان الذي تقصده وعما تنويه ، فأجابته بأنها جاءت لإنجاز بعض الأعمال وأنه لم يعد أمامها سوى انتظار القطار الذي سيقطعها إلى براغ في المساء . عبر عن السرور الذي جلبه له لقاءها المفاجيء ؛ وحين وافقاً على الاعتراف (بحق) أن مشربي البيرة في الحي قد ران ومزدحمان ، دماها إلى شقته التي لم تكن بعيدة ، حيث يمكنه أن يحضر لها القهوة أو الشاي ، والتي كانت على الأخص مكاناً نظيفاً وهادئاً .

٢.

كان التهلر قد بدأ بداية سيئة بالنسبة لها . فزوجها مدفون في مقبرة هذه المدينة الصغيرة بناء على أمنية غريبة أفصح عنها في رغباته الأخيرة (عاشا هنا منذ ثلاثين عاماً لبعض الوقت وكانا آنذاك متزوجين ، حديثاً ، ثم أقاما في براغ حيث مات منذ عشر سنوات) . كانت إذاً قد حصلت على امتياز لمدة عشر سنوات ، ولاكتشفت منذ بضعة أيام أنها نسيت تجديده وأن المهلة انصرفت . فكرت في البداية بالكتابة إلى مكتب المقبرة ، لكنها حين تذكرت أن أية مراسلة مع الإدارة هي مشروع طويل الأمد وعابث ، جاءت .

مع أنها تحفظ عن ظهر قلب الطريق المؤدي إلى ضريح زوجها . كانت تشعر يومئذ أنها ترى المقبرة للمرة الأولى . لم تفلح في العثور على الضريح وظلت أنها ضلت . فهمت أخيراً : هناك حيث كانت توجد سابقاً ، شاهدة من الصلصال مكتوب عليها اسم زوجها بحروف مذهبية ، صارت تنتصب الآن (كانت متأكدة من معرفتها على المكان من ضريحين مجاورين) شاهدة من الرخام الأسود ، منقوش عليها بحروف مذهبية اسم مجهول تماماً .

ذهبت إلى مكتب المقبرة وهي مضطربة . هناك قالوا لها بأن القبور تفرغ تلقائياً عند نهاية الامتيازات . لامتهم على عدم إخطارها بأنه كان يترتب تجديد الامتياز ، وأجابوها بأن ساحة المقبرة صغيرة وأنه يجب على الوتي القدمة إخلاء المكان للوتي الجدد . كانت مفتاظة وقالت لهم ، وهي تداري بمشقة نحيبها ، أنه ليس لديهم حس بالكرامة الإنسانية ولا احترام للآخرين ، لكنها لم تلبث أن أدركت بأن النقاش غير مجدر . ومثلما لم تستطع منع موت زوجها ، كانت عاجزة أمام هذا الموت الثاني ، هذا الموت الثاني لميت قديم لم يعد له الحق في الوجود حتى في عالم الموت .

عادت نحو مركز المدينة وغدا حزنها مزوجاً بالقلق لأنها كانت تتساءل كيف سيكون بمقدورها أن تشرح لابنها اختفاء ضريح الأب والاعتذار له عن إهمالها . جاء التعب بعد ذلك : لم تكن تبدي كيف تقضي ساعات الانتظار الطويلة حتى يحين موعد انطلاق القطار الذي سيقولها إلى براغ ، لأنها لم تكن تعرف أحداً هنا ، ولم تكن ترغب أيضاً بالقيام بنزهة ترفيهية ، فقد تبدلت المدينة خلال سنوات إلى درجة أن الامكنة القديمة المألوفة أضحت تبدي لها اليوم وجهاً غريباً تماماً . لذلك لبث بامتنان دعوة الصديق القديم (نصف النسي) الذي لا تقته للتو صدفة : اتبع لها غسل يديها في الحمام ، والجلوس على كرسي ناعم ومرح (كانت ساقها تؤلمها) ومعاينة الحجرة والاصغاء إلى صوت غليان الماء خلف الحاجز الذي يفصل زاوية المطبخ عن المشقة .

٣

كان قد بلغ مؤخراً الخامسة والثلاثين من عمره وقد اكتشف فجأة أن شعره مبعثر بوضوح على قمة جمجمته . إنه ليس صلماً بعد ، لكنه ينذر به الآن (كان الشعر يفسح مجالاً لظهور الجلد) : صار محتماً تماماً وآتياً عما قريب . من المثير للسخرية بالتأكيد افتعال مشكلة حيوية عن تساقط شعره ، لكنه كان يدرك أن الصلع سيبلل وجهه وأن الحياة بأحد مظاهرها (الأفضل بوضوح) تلتو من نهايتها .

تساءل عندئذ عن الحساب الدقيق لتلك الشخصية (طويلة الشعر) التي تموت شيئاً فشيئاً ، وعما عاشته تلك الشخصية بالضبط واية أفراح عرفتها بالضبط ، وتأكد بذهول أن أفراحه كانت أمراً تافهاً جداً ، كان يشعر بالخجل في نفسه لا شيء إلا لهذه الفكرة ، أجل كان الحياء يعتريه : لأنه من المشين الإقامة فترة طويلة على هذه الأرض والعيش قليلاً .

ماذا كان يعني بالضبط حين كان يقول بأنه عاش قليلا ؟ هل كان يفكر بالأسفار والعمل والحياة العامة والرياضة والنساء ؟ كان يفكر بكل ذلكا حتما ، لكن بادئ ذي بدء في النساء ، لانه كان يتالم قليلا من حياته الفقيرة في الميادين الاخرى ؛ لكنه لم يكن يوسع اعتبار نفسه مذنباً في ذلكا الفقر : فرغم كل شيء ليس خطاه إذا كانت مهنته دون منفعة ملدية ودون أفق ، ليس خطاه إذا لم يستطع السفر وهو لا يملك من أجل ذلك المال ولا تصريح قسم الموظفين ، وليس خطاه إذا انكسر الفُضروف العضلي في سن العشرين وإذا اضطر للتخلي عن الرياضة التي يحبها . أما الميدان الانثوي فقد كلن بالنسبة له مجال الحرية الخاصة ، وفيه لم يكن بمقدوره التدرع بأي عذر . كلن بمقدوره في ذلك الميدان إظهار من يكون وإبراز ترائه ، فقد أصبحت النساء بالنسبة له المعيار الوحيد المؤكد لكشافته الحيوية .

لكنه ليس محظوظا ! لم ينجح ذلك أبداً مع النساء : فقد ظل الخوف يشله حتى بلغ الخامسة والعشرين (مع انه كان فتى وسيماً ، بعد ذلك وقع في الحب ، فتزوج وسعى خلال سبع سنوات إلى إقناع نفسه بأنه يمكن للمرء أن يجد في امرأة واحدة لانهاية الإثارة الجنسية ثم طلق ، فأخلى تبرير أحادية الزواج (وهم الإثارة الجنسية) المكان للرغبة الوقحة والمتعة حيال النساء (المبرقشة بمهارة لوفرتهن) ، لكن تلك الشهوة والجرأة كانتا ، مع الأسف مكبوتتين بشدة من جراء وضع مالي صعب (كان عليه أن يدفع نفقة شرعية إلى زوجته السابقة عن طفل سمح له برؤيته مرة أو مرتين في العام) وبسبب ظروف الحياة في مدينة صغيرة كان فضول الجيران فيها غير محدود مثلما كان اختيار النساء للأغواء مقيدا .

انقضى الزمن بعد ذلك بسرعة ، وفجأة القى نفسه امام المرأة البيضوية المركزة فوق مغسلة الحمام ، ويسمك في يده اليمنى مرآة دائرية صغيرة فوق رأسه ، وأخذ ينظر إلى صلغته الوليدة مذهولاً ، فأدرك الحقيقة السخيفة على حين غرة (دون أي تمهيد) . لن يسترجع

ما تركه يضيع . صار يعاني منذ ذلك الحين من مزاج سيء دائم وتراوده أفكار الانتحار . بالطبع (ولابد من لفت الانتباه إلى ذلك) كي لا تحسبوه مصاباً بالهستيريا أو أحقق : كان يعني ما تحتويه تلك الأفكار من جانب هزلي وأنه لن ينفذها أبداً (كان يضحك على نفسه لحاظ رسالة الوداع : لن أقبل أبداً أن أصبح أصليع : الوداع !) لكن يكفي أن تلك الأفكار : بل الأفلاطونيات ، خطرت على باله . فلنحاول فهم ذلك : كانت تراوده هذه الأفكار تقريباً مثلما تراود عداء المثلثون الرغبة القاهرة في الانسحاب حين يتأكد في منتصف السباق أنه على وشك الخسارة (وفوق ذلك ، بسبب هفواته) . هو أيضاً كان يعتبر أنه خسر السباق ولم تكن لديه الرغبة بمتاعمة الجري .

والآن ، اخذ ينحني فوق الطاولة الصغيرة ويضع فنجان قهوة أمام الأريكة (التي سيجلس عليها بعد ذلك) وفنجاناً آخر أمام المقعد المريح الذي جلست عليه الزائرة ، وراح يقول لنفسه إن الدهاء الغريب للقدر جعله يصادف هذه المرأة التي عشقها فيما مضى بجنون والتي تركها تفر آنذاك (بسبب هفواته) ، بالضبط حين صار يلقي نفسه في وضع نفسي سيء وحين لم يعد بالامكان استرجاع شيء .

٤

لن نكتشف بالتأكيد أنها كانت في نظره المرأة التي تركها تفر ؛ كانت ما تزال طبعاً تتذكر الليلة التي أمضيها سوية ، وتتذكر هيئته حينئذ (كان في سن العشرين) ولم يكن يعرف ارتداء ملابس ، كان يخجل «بسليها بتصرفاته المراهقة » ، تتذكر أيضاً المرأة التي كانت آنذاك (كانت توشك على بلوغ الأربعين من عمرها وكان ظمناً للجمال يقدفها إلى أحضان مجهولين ، لكنها تتخلى عنها في الحال ؛ لأنها فكرت دائماً أنه يجب على حياتها أن تشبه رقصه ساحرة ، وكانت تخشى أن تتحول خياناتها الزوجية إلى عادة مشينة) .

أجل ، كانت تلزم نفسها بالجمال ، كما يلزم آخرون أنفسهم بأمر أخلاقي ؛ فلو اكتشفت القبح في حياتها ، لاستسلمت لليأس . وبما أنها كانت تدرك أنه لا بد لمضيفها من أن يجدها مسنة بعد خمسة عشر عاماً (مع كل القبح الذي ينطوي عليه ذلك) ، فقد سارعت إلى بسط مروحة وهمية أمام وجهها ، وغمرته بالأسئلة : كانت تريد معرفة كيف جاء إلى هذه المدينة ؛ تسأله عن عمله ؛ تمتدح شقيقته التي تجدها ظريفة بإطلالتها على سطوح المدينة (قالت بأنه ليس في تلك الإطلالة شيء غير مألوف طبعاً ، لكنها تعطي إحساساً بالحرية) ؛ سمت مقلدي بعض الصور المؤطرة للوحات الإنطباعيين (لم يكن ذلك صعباً لأنه من المؤكد وجود الصور نفسها بالرخيصة الثمن عند معظم المثقفين التشكيكيين الفلاس) ، ثم نهضت وهي تمسك فنجاتها بيدها ، وانحنى فوق المكتب الصغير حيث كانت عدة صور فوتوغرافية مرتبة في إطار (تأكدت أنه لا توجد صورة فوتوغرافية واحدة لامرأة شابة) وسألت فيما إذا كان وجه المرأة المسنة الذي يشاهد في إحدى تلك الصور هو وجه والدته (فوافق) .

سألها بعد ذلك عن تلك الأعمال التي جاءت تنجزها كما أخبرته عند لقائهما . لم تكن لديها أية رغبة بالكلام عن المقبرة (كانت هنا ، في الطابق الخامس من هذه العمارة ، كالمعلقة فوق السطوح وكذلك كان يرادها ، إحساس ممتع جداً ، يعلو أيضاً فوق حياتها) ، ولأنه أخذ يلح ، انتهت إلى الإعتراف (لكن باختصار شديد ، لأن الوقاحة الناتجة عن صراحة زائدة كانت غريبة عنها دوماً) بأنها سكنت قديماً في هذه المدينة ، وقد مضى على ذلك سنوات كثيرة ، وأن زوجها دفن هنا (لم تذكر شيئاً عن اختفاء الضريح) وإنها كانت تأتي في كل السنوات إلى هنا مع ابنها ، في عيد القديسين .

٥

« كل السنوات ؟ » كان هذا الإعلان يحزفه وفكر من جديد في دهاء القدر ؛ فلو انه التقاها قبل ست سنوات عندما جاء للإقامة في هذه المدينة ، لظل كل شيء ممكناً : لما كانت بعد متقضنة بالزمن إلى هذا الحد ، ولما كانت مختلفة إلى هذا الحد عن صورة المرأة التي احبها قبل خمسة عشر عاماً ؛ ولحظي بالقدرة على تدليل الفرق والتقاط الصورتين (الصورة الحالية وصورة الماضي) كصورة واحدة . لكن كلتا الصورتين أصبحتا متباعدتين الآن بشدة .

شربت فئجان القهوة ، وراحت تتكلم بينما اخذ يحاول أن يحدد بالضبط مدى هذا التحول الذي كانت بسببه على وشك أن تفر منه للمرة الثانية : الوجه متغضن (وهو ما تحول طبقات عديدة من المسحوق التستر عليه دون جدوى) ؛ العنق ذابل (وهو ما كانت تسمى لإخفائه دون جدوى تحت قبة مرفعة) ؛ الوجنتان متهدلتان ؛ أما الشعر فقد كان الشيب يخطه (لكنه ظل جميلاً تقريباً !) . لكن ما كان يجذبه أكثر هو باليدان (اللتان لم يفلح المسحوق ولا الحبرة بتجميلهما مع الأسف) : كانت شبكة زرقاء من الأوردة التي تبرز عليهما مجسمة تكاد تصنع منهما يدي رجل .

بدأ الأسف يمتزج فيه بالغضب ، فرغب بالكحول كي ينسى أن هذا اللقاء حدث متأخراً جداً ، سألها إذا كانت ترغب بالكوكييك (لديه زجاجة مودعة في الخزانة خلف الحاجز) ، فاجابته بالنفي وتذكر انها لم تكن تشرب منذ خمسة عشر عاماً تقريباً ، بالتأكيد مخافة أن يحرّم الكحول لعبتها من الاعتدال النظريف . وحين شاهد أيماء يدها الرشيقة التي أشارت بها إلى رفض عرض الكوكييك ، أدرك أن هذا السحر النظريف وهذا الإغراء وهذا اللطف الذي فتنه ما زال على حاله مع انه توارى تحت قناع الزمن ، وما زال أيضاً جذاباً حتى وراء السياج .

عندما قال لنفسه بأن هذا السياج هو سياج الزمن ، شعر حيالها بشفقة بالغة ، وتلك الشفقة قربتها منه (هذه المرأة الغائنة قديما ، التي كانت تفقده النطق) ورغب بالثرثرة معها مدة طويلة كصديق مع صديقة (في جو أزرق خال من الكتابة . لذلك أخذ يتكلم بتزلف والمخ إلى تخلصه من أفكاره التشاؤمية التي كانت تزعجه منذ بعض الوقت . وطبعاً لم يذكر شيئاً عن صلعه الوليد (مثلما لم تذكر شيئاً عن الضريح المختفي) ، وحولت رؤية الصلع القربان إلى عبارات شبه فلسفية بشأن الزمن الذي ينصرم بأسرع من أن يكون بمقدور الإنسان تعقبه ، وبسبب الحياة الموسومة بحتمية التخلل ، وإلى عبارات أخرى مماثلة ، كان ينتظر من زائرته أن ترد عليها بملاحظة حنونة ، لكنه انتظر عبثاً .

« قالت بحدة تقريباً : لا أحب كل هذه النقاشات ، كل ما ذكرته سطحي على نحو مرعب » .

٦

لم تكن تحب أن يتكلم أحد من الشيخوخة وعن الموت ، لأنه كانت توجد في هذه الأحاديث صورة القبح الجسدي الذي تنفر منه . ورددت مراراً على مضيئها ، بأنفعال تقريباً ، أن آراءه سطحية ، فالإنسان كما تزعم هو أكثر من جسده الذي يلوي ، لأن الأساس هو عمل الإنسان وما يتركه الإنسان الآخرين . لم تكن هذه حجة جديدة من جانبها ، فقد التجأت إليها منذ ثلاثين عاماً ، عندما هلمت بزوج المستقبل الذي كان يكبرها بتسعة عشر عاماً ، لم تكف أبداً عن احترامه بصدق (رغم كل خيانتها التي لم يكن يعرف شيئاً عنها أو التي لم يكن يريد أن يعرف شيئاً عنها) وكانت تسعى لإقناع نفسها بأن ذكاء زوجها وسيرته يعوضان عن العبء الثقيل لسنواته .

اجاب بضحكة مريرة : « أي عمل أسألك عنه ! أي عمل تريدني أن نتركه ! » .

لم تكن تريد الإستشهاد بالمرحوم زوجها ، مع انها مقتنعة بالقيمة المستمرة لكل مآثره ، اكتفت إذا بالاجابة بان كل انسان في هذه الدنيا ينجز مهمته ، مهما كلفت متواضعة ، وان ذلك ، ذلك وحسب يعطيه قيمته ، يلمات بالكلام من نفسها بتحيز ، عن عملها في ناد ثقافي في ضواحي براغ ، عن الندوات والامسيات الشعرية التي كانت تنظمها فيه ، وراحت تتكلم (بتشدق بدا له غير لائق) « من وجوه الجمهور الممتنة » ، ثم قالت بانه جميل أن لديها طفلاً وانها تشاهد قسماته الخاصة تتبدل شيئاً فشيئاً (كان ابنها يشبهها) لتصبح وجه رجل ، وانه جميل أن تهبه كل ما يمكن لام أن تهبه لابنها وان تتلاشى بهدوء في آثار حياتها .

لم تكن صادفة انها اخذت بالكلام عن ابنها. كان حاضراً يومئذ في كل فكرة من أفكارها واخذ يلومها على إخفاقها في المقبرة ، كان هذا غريباً ، لم تسمح أبداً لرجل أن يفرض عليها إرادته ، لكن ابنها كان يتسلط عليها دون أن تتوصل لمسرفة الطريقة ، وإذا كان إخفاق المقبرة قد شوشها إلى هذا الحد ، فلأنها على الاخص كانت تشعر بنفسها مذنبه أمامه وتخشى عتابه . كان ابنها يحرص بعناية فائقة على ان تحيي كما ينبغي ذكرى والده (فهو الذي يلح كل عام في عيد القديسين لكي لا ينسيا الذهاب إلى المقبرة !) وكانت تشتبه في ذلك منذ زمن طويل : فقد أملى حب الأب المتوفى هذا الهم أقل مما أملت له الرغبة في اضهاد الأم ، والحفاظ عليها في الحدود الملائمة للأرملة ، لأن الأمر كان هكذا ، مع انه لم يفصح عن ذلك أبداً ومع انها جاهدت (عبثاً) لتجاهله : كان ينفر من أمه لدى التفكير بانه قد يكون لديها حياة جنسية وينظر باشمئزاز إلى كل ما يمكن أن يستمر من رغبته الجنسية (حتى كافتراض) ولأن فكرة الجنس مرتبطة بفكرة الشباب ، فقد كان ينظر إلى كل ما يمكن أن يستمر فيها من الشباب باشمئزاز ، لم يعد طفلاً وكان شباب والديه (المقترب من بلوغه) الاهتمام الأمومي (بشكل حائل) بينه وبين شباب الفتيات اللواتي بدأن باستمالته ، كانت تلزمه أم مسنة لكي يستطيع احتمال حبها وليكون قادراً على حبها . ومع انها ادركت أحياناً انه يدفعها هكذا إلى القبر ، فقد انتهت

إلى الاستسلام له والخضوع لضغطه، وحتى تجميل هذا الضغط بالاقتناع
أن جمال حياتها يصدر تماماً من ذلك التلاشي الهاديء خلف حياة أخرى .
وباسم هذا التجميل (الذي لولاه لظلت تفضنات وجهها تثيرها كثيراً)
راحت تساجل مضيفها بحماسة غير متوقعة .

لكن مضيفها انحنى فجأة على الطاولة المنخفضة التي تفصل بينهما،
داعب يدها وقال : « اعديني إذا تفوهت بالحماقات ، فأنت تعلمين
جيدا أنني كنت دائماً أحقق » .

V

لم تقضيه مسلجتهما ، بل على العكس تماماً ، فالزائرة لم تنفك
عن تأكيد هويتها في نظره : في الاحتجاج الذي رفعتة ضد أحاديثه
التشاؤمية (ولكن ألم يكن ذلك قبل كل شيء احتجاجاً ضد القبح
واللوق الناشر ؟) كان يلقاها كما عهدتها ، بحيث أن شخصيتها
ومغمرتهما القديمة ما تزالان تشغلان تفكيره ولم يكن يرغب بعد إلا بشيء
واحد ، ألا يأتي ما يعكر هذا النجو المزرق المناسب جداً للحديث (لهذا
السبب داهب يدها ويوصف نفسه بالأحمق) وأن يستطيع محادثتها
عما يبدو له أساسياً الآن : مغامرتهما المشتركة ؛ لأنه غداً مقتنعاً أنه
عاش معها شيئاً ما غريباً تماماً لم تكن تدركه ، ولذلك صار يترتب عليه
أن يبحث عنه ويجد بنفسه التعبيرات الدقيقة .

لم يكن يتذكر بعد حتى كيف عارفها، بالتأكيد كانت قد جاءت للانضمام
إلى فريق من الأصدقاء الطلبة ، ولكنه كان ما يزال يذكر الحانة الصغيرة
البراقية الهلثة التي تواعداً على اللقاء فيها أول مرة : كان جالساً
مقابلها في مقعد مفروش بالخمير الأحمر ، وكان متضيقاً وصامتاً ، وفي
الوقت نفسه منتشياً تماماً بالإيماءات اللطيفة التي تعبر بواسطتها
عن أنسها به . كان يسعى لتصور (دون أن يتجرأ على الأقل بتحقيق
تلك الأحلام) كيف سيكون حلها إذا عانقها وعمرها وأحبها ، لكنه لم

يفلح في ذلك . أجل ، كان ذلك غريبا : حاول مرارا تخيلها في الحب الجسدي لكن دون جدوى : كان وجهها يتلعب النظر إليه بالبسمة الهادئة اللطيفة نفسها ، ولم يكن بوسعها (حتى بالكاد المتواصل للمخيلة) أن يشاهد عليه التكنشرة الفرامية المثيرة . كانت تفر كليا من مخيلته .

كانت تلك حالة لم تتكرر ثانية قط في حياته : فقد ألغى نفسه في مواجهة الغرابة . كان قد عاش تلك الفترة الوجيزة جدا من الحياة (الفترة الفردوسية) التي لم تشبع فيها المخيلة بعد بالتجربة ولم تصبح روتيناً والتي يعرف فيها المرء ويعلم القليل من الأمور بحيث أن الغرابة ما تزال موجودة ؛ وحين تكون الغرابة على وشك التحول إلى حقيقة (دون وساطة التخيل ، ودون جسر الصور) فإن المرء يصاب بالدمر والدوار . وبالفعل اعتراه الدوار حين لم يفلح بعد عدة لقاءات أخرى في التصميم على شيء ، وبدأت تسأله بالتفصيل ويفضول معبر عن حجرة دراسته التي يشغلها في المدينة الجامعية ، وهي تضطره تقريبا إلى دموها .

حجرة المدينة الجامعية التي كان يسكنها مع رفيق وعده بشمن دح عرق ، بعدم العودة قبل منتصف الليل في ذلك المساء ، لم تكن تشبه شقة اليوم : سريران معدنيان وخزانة ومصباح مبهر دون واقعي ، وفوضى رهيبية . رتب الحجرة ، وفي الساعة السابعة (كانت دقيقة دائما ، وكان ذلك جزءا من لباقتها) طرقت الباب . كانا في شهر أيلول وبدأ الليل يحل ببطء . جلسا على طرف السرير المعدني وأخذتا يتعناقان . مع الظلام بعد ذلك أكثر فأكثر ولم يكن يرغب باضاءة النور ، لأنه كان سعيدا لعدم قدرتها على رؤيته ، وكان يأمل أن تخفف العتمة المضيق الذي كان لا بد أن يشعر به عندما سيخلع ملابسه أمامها (ولطالما كان يعرف بطريقة ما حل أزرار صناديق النساء ، فقد كان يتعري من ملابسه أمامهن بنهوض محتشم) لكنه في تلك المرة ، تردد طويلا قبل أن يفك الزر الأول من قميصها (كان يقول لنفسه أنه يجب على حركة التعرية الأولى أن تكون حركة رشيقة ولطيفة خليقة بالرجال المجرمين ، وكان يخشى

من افتضاح قلة خبرته) بحيث أنها نهضت من تلقاء نفسها وسألته بابتسامة : « اليس الأجدر بي خلع هذا الدرع ؟ ... » وبطأت بخلع ملابسها ؛ لكن الظلام كان طافياً ولم يكن يرى إلا ظلال حركاتها . تمرى بسرعة ولم يشعر بالاطمئنان الاكيد إلا عندما بدا (بفضل الصبر الذي اظهرته) بالمضاجعة . راح ينظر إلى وجهها لكن دلالة كانت تغفل منه في الظلام ولم ينجح حتى في تمييز قسماته . كان يأسف لعدم اضاءة النور لكن أصبحت تبدو له استحالة النهوض الآن لكي يتوجه نحو الباب ويوصل قاطع التيار ؛ إذا كان ما يزال يتعب عينيه دون جدوى : لم يكن يميزها ؛ وكان يشعر بحب امرأة أخرى ؛ أنسانة مستعارة ومجردة ودون كيان .

جلست بعد ذلك فوقه (وحتى ذلك الحين ، لم يكن يشاهد منها إلا ظله المنتصب) وقللت له ، وهي تمايل وركبها ، شيئاً ما مخنوق في تمتمة ، لكن كان من العسير معرفة ما إذا كانت تقول ذلك له أم لنفسها . لم يكن يميز الكلمات وسألها عما كانت تقوله . وظلت تهمس ، وحتى عندما ضمها من جديد ، لم يستطع فهم كلماتها .



كانت تصغي إلى مضيغها ، وهي مفتونة أكثر فأكثر بالتفاصيل التي نسيته منذ وقت طويل : فعلى سبيل المثال ذلك الرداء اللأزرق الغامق من نسيج الصيف الخفيف الذي كانت تشبه فيه ، كما يقول ، ملاكاً مقدساً (أجل تتذكر ذلك الرداء) أو تلك الشكالة المشخينة المثلومة التي كانت تضعها في شعرها والتي تمنحها نبلاً مندرساً لسيدة نبيلة ، أو تلك العادة التي كانت تلاحظها في الحانة التي يتواعدان فيها ، يطلبها دائماً شاي بقصب السكر (خطيئتها الكحولية الوحيدة) وكان كل ذلك يجرفها بتمتعة ، بعيداً عن المقبرة وعن الضرب المندشر ، بعيداً عن ساقبيها التالين وعن نادي الثقافة ، وبعيداً عن عيني ابنها المعتبتين . راحت تفكر ، أه ، رغم ما أنا عليه الآن ، فأنني لم أمش ميتاً

طالما أن القليل من شبابي ما يزال يعيش في ذاكرة هذا الرجل ؛ وقالت
لنفسها بعد ذلك بأن هذا تأكيد جديد لقناعتها : كل قيمة الكائن الانساني
تتوقف على تلك الصعوبة في التفوق على ذاته ، في أن يكون خارج نفسه ،
أن يكون في الآخرين ولأجل الآخرين .

كانت تصغي إليه ولا تمنعه حين كان يداعب بين القينة والاخرى
يدها ؛ كانت هذه الحركة تنسجم مع الجو الودي للمحادثة وينبعث منها
غموض مهدي (لمن كان يوجه هذه الحركة ؟ للمرأة التي يتكلم عنها أم
للمرأة التي يتكلمها ؟) ؛ وقضلا عن ذلك كان هذا الرجل الذي يداعبها
يعجبها ؛ فقد كانت تقول لنفسها بأنه يعجبها أكثر من الشاب الفتى
منذ خمسة عشر عاماً الذي كانت ومونته ، إن كانت ما تزال تتذكر ذلك
جيلاً ، مضنية .

حين واصل في حكايته إلى اللحظة التي كان فيها شبحها المتحرك
ينتصب فوقه ، والتي كان يحاول فيها عبثاً لتلقف كلماتها ، صمت لبرهة
وسألته برفق (بسداجة) ، كانه يعرف هذه الكلمات وكأنه يريد
بعد سنوات كثيرة أن يذكرها لها كسر منسي) : « وماذا كنت أقول ؟ »



أجاب : « لا أدري » وفي الحقيقة لم يكن يعلم ذلك ؛ فقد هربت
آنذاك ليس فقط من خياله ، بل ومن حواسه ، من نظره كما من سمعه .
عندما أشعل النور في حجرة المدينة الجامعية الصغيرة ، كانت قد ارتدت
حلابسها ثائية ، وكان كل شيء عليها أملس من جديد ، فاتناً براقةً وكاملان
وكان يبحث عبثاً عن الرابطة بين هذا الوجه المضيء وذاك الوجه الذي
كان يخمنه في الظلام قبل بضع لحظات . لم يكونا قد افترقا بعد في ذلك
المساء ، وبات الآن يسترد ذكراها : كان يرغم نفسه على تصور كيف
كان وجهها (المستتر بالظلام) وجسدها (المستتر بالظلام) قبل لحظات ؛
إثناء المضاجعة . عبثاً ؛ كانت تهرب دائماً من خياله .

صمم على أن يضاجعها المرة القادمة في النور . لكن لم توجد مرة قادمة . كانت تتجنبه بمهارة وتهذيب وكان يستسلم للشك والياس . ربما كانا قد تضاجعا جيداً ، لكنه كلن يعلم أيضاً إلى أي مدى كان مستحيلاً آنفاً ، وكان يخطئه ذلك ؛ كان يشعر بنفسه مذنباً لأنها كانت تتجنبه ، ولم يعد يتجرأ على الإلحاح على لقاءها .

« أخبريني ، لماذا كنت تتجنبيني ؟ »

— قالت بصوت أكثر رقة : أوجوك . مضى زمن طويل على ذلك . ما ادركني بالسبب ؟ « وبينما ما يزال يلح ، قالت « لا ينبغي العودة دائماً إلى الماضي . وبكفي الآن أن يخصص المرء له قسطاً من الوقت على مضض ، ذاك الماضي ! » كانت قد قالت هذا لتهديء إلحاحه قليلاً (وبذلك العبارة الأخيرة اللغوظة بتنهيذة خفيفة ، كانت تعيدها بالتأكيد إلى زيارتها الأخيرة للمقبرة) ، لكنه فسر تصريحها بطريقة أخرى : كلن هذا التصريح يهدف لجعله يفهم فجأة وبشور (هلاً أمر واضح) أنه لا توجد امرأتان (امرأة اليوم والمرأة القديمة) بل امرأة واحدة بعينها وان تلك المرأة التي تهربت منه منذ خمسة عشر عاماً ، اوضحت الآن حاضرة هنا وفي متناول يده .

قال بنبرة معبرة : « إنك محفة ، الحاضر أهم » وحين قال ذلك ، راح ينظر بحدة إلى وجهها الباسم الذي تكشف شفتاه المنفرجتان عن صف أسنان ؛ وفي تلك اللحظة ، خطرت على باله ذكرى : في ذلك المساء ، في حجرة المدينة الجامعية الصغيرة ، أمسكت أصابعه ووضعته في فمها ، عضتها بقوة إلى درجة أنها أكلته وفي تلك الأثناء ، كان يتحسس فمها برمته ، وما زال يتذكر ذلك بوضوح ؛ فمن أحد جوانبه كان ينقسه بعض الأسنان (لم ينزعج من هذا الاكتشاف عندئذ ؛ بل على العكس ، كان هذا العيب الصغير ينسجم مع عمر رفيقته ، العمر الذي كان يستهويه ويستثيره) لكنه استطاع الآن ، وهو ينظر في الشق الذي يفتح بين الأسنان وزاوية الفم ، للتأكد من أن الأسنان ناصعة البياض ولا ينقصها

اي سن ؛ وقد اغاظه ذلك : كانت الصورتان تنفصلان عن بعضهما مرة اخرى ، لكنه لم يكن يريد الإقرار بذلك ، وكان يريد جمعهما من جديد ، بالقوة و الاكراه ، وقال : « الا ترغبين حقاً بالكونياك ؟ » وفيما كانت ترفض بابتسامة ساحرة وقد رفعت حاجبيها بلطف ، انسحب الى خلف الحاجز وأخرج زجاجة الكونياك ، وأمالها نحو فمه وشرب بسرعة . قال لنفسه بعد ذلك أنها ستكتشف من تنفسه ما قام به في الخفاء لتوه : اخذ كاسين والزجاجة وحملهما الى الحجرة . هزت رأسها من جديد فقال « على الأقل بشكل رمزي » وملا الكاسين . صدم قدحه مع قدحها : « لكي لا أتكلم منك بعد إلا في الحاضر ! » أفرغ قدحه وبللت شفيتها ، ثم جلس بجوارها على ذراع الكرسي وأمسك يديها .

١٠

لم تكن تشتبه حين وافقته إلى شقته أن اي اتصال قد يحدث ؛ وفي الحال اعتراها اللعر من ذلك ، كما لو أن هذا الاتصال حدث قبل أن تسنح لها فرصة التحضير له (هذه الحالة من التحضير اللئيم كما تعرفها المرأة الناضجة ، كانت قد فقدتها منذ زمن طويل) ؛ (قد يتبين المرء في ذلك اللعر أمراً ما مشتركاً مع ذعر المراهقة التي قبلها للمرة الأولى لأنه إذا كانت المراهقة غير مستعدة بعد وإذا كانت الزائرة لم تعد مستعدة ، فإن هذه « لم تعد » وهذه « بعد » مرتبطان خفية كما ترتبط الشيخوخة والطفولة) اجلسها بعد ذلك على الأريكة وضمها إلى صدره وداعب جسدها كله ، وصارت تشعر بنفسها هشة بين ذراعيه (أجل ، هشة : لأن جسدها فقد منذ زمن طويل تلك الشبقية الجامحة التي كانت توصل إلى عضلاتها إيقاع التشجنات والارتخاءات ونشاط مئات الإعراجات العذبة) .

لكن ذعر الهولة الأولى تبدد بسرعة تحت تأثير مداعباته ، وكانت هي ، التي أصبحت بعيدة جداً عن المرأة الناضجة الجميلة التي كانتها سابقاً ، تعود بسرعة تبعث على اللوار إلى ذلك الكائن المختفي - في

حساسيتها ووعيتها وتستعيد الاطمئنان القديم لعاشقة خيرة ، وبما انها تشعر بهذا الاطمئنان منذ زمن طويل ، فقد أصبحت تشعر به الآن بحلة أكثر من أي وقت مضى ، فجسدها الذي كان ، منذ برهة ، ما يزال مذهولاً ومدهوراً ، مستسلماً وليناً ، صار يتحرك ويستجيب الآن للمداعبات الخاصة وأصبحت تحس وضوح ومعرفة هذه المداعبات ، فيفهمها ذلك بالقبضة ، هذه المداعبات ، والطريقة التي تضع بها وجهها على جسده ، والحركات العذبة التي يستجيب بها نصف جسدها العلوي للعناق ، كانت تجد كل ذلك ليس كأمر معلوم ، أمر كانت تعلمه وتنجزه الآن برضى فائق ، لكن كأمر ما ضروري لها ، تمتزج معه في العمل والإثارة ، كأنها تعثر على قلوها الأليفة . (آه ، قارة الجمال !)
التي نليت منها والتي تعود إليها باحتفالية .

أصبح ابنها الآن بعيداً للغاية ، وعندما احتضنها مضيقها ، لمحتة يلومها في زاوية تفكيرها المتوارية ، لكنه اختفى بسرعة فائقة ، ولم يعد يوجد الآن على بعد مائة فرسخ من جميع الجهات إلا هي والرجل الذي يداعبها ويحتضنها . لكن كل شيء تبدل حين وضع قدمه على فمها وأراد فتح شفتيها بلسانه : عادت إلى الواقع . كرت بشدة على أسنانها (صارت تشعر بطقم أسنانها الملتصق بفكيها ، وبات لديها إحساس بأنه يملأ فمها) ثم دفعته برفق : « كلا . حقاً . أرجوك . لا ينبغي » .

وبينما راح يتابع إلحاحه ، أمسكت معصميه وكررت رفضها ، ثم قالت له (أخذت تتكلم بجهد ، لكنها كانت تعلم أنه لا بد لها من التكلم إذا أرادت أن يطيعها) أن أوان التضاجع قد فات ، وذكرته بعمرها الذي بلغته ، قالت بأنهما إذا تضلعا فلن يشعر حيلها إلا بالتعزز ، وستكون حريئة من ذلك ، لأن ما قاله لها عن مغامرتهما القديمة كان جميلاً ومهماً بالنسبة لها ؛ كان جسدها ميتاً وذائِباً ، لكنها أصبحت الآن تعلم أنه بقي منه شيء ما روحي ، شيء ما يشبه شعاعاً ما يزال يلتصق ، حتى بعد انطفاء النجمة ، وليس مهماً أن تشيخ ما دام شبابها سليماً ، ويظهر في كائن آخر . طفقت تقول للدفاع عن

نفسها : « شيدت لي صرحاً في ذاكرتك . ليس بوسعنا السماح بتهديده ،
أنهمني . ليس لك الحق ، ليس لك الحق بذلك »

١١

أكد لها بأنها كانت دوما جميلة ، وأنه لم يتغير شيء في الواقع ،
وإن المرء يبقى على حاله دائما ، لكنه كان يعلم أنه يكذب عليها وأنها
محنة : كان يعرف حق المعرفة حساسيته المفرطة بخصوص الأمور
الجسدية ، والاشمئزاز الذي يتضح أكثر في كل عام ، كان يشعر به
حيال عيوب الجسد الانثوي ، ويدفعه أكثر فأكثر خلال هذه
السنوات الأخيرة إلى مقربة من النساء الشابات الفارقات ، كما كان
يتبين بمرارة ، والحمقوات أكثر فأكثر ، أجل ، لم يكن في وسعه إيجاد
أي شك في هذا الصدد : فلما أقنعها بالمضاجعة ، لوجد في النتيجة
التقزز ، وذلك التقزز لا يمكنه إلا تلطخ ، ليس فقط اللحظة الحالية ،
بل صورة المرأة المحبوبة منذ زمن طويل ، تلك الصورة التي ما زال
يحتفظ بها في ذاكرته كجوهرة .

كان يعلم كل ذلك ، لكن كل ذلك لم يكن سوى أفكار ، والأفكار
لا تستطيع شيئا حيال الإرادة التي لا تعرف إلا شيئا واحدا : المرأة التي
عذبته بعدم قابليتها للمس وعدم قابليتها للإمساك طوال خمسة عشر
عاما ، تلك المرأة كانت حاضرة ؛ يوشك أن يستطيع أخيراً رؤيتها في النور
الساطع ، يوشك أن يتمكن أخيراً ، في جسدها اليوم ، من قراءة جسدها
القديم ، وقراءة وجهها القديم في وجهها اليوم . يوشك أخيراً أن يتمكن
من اكتشاف أيمائتها العاشقة الخارقة ، وانقباضها العاشق الخارق .

عائق كنفها ونظر في عينيها : « لا ترفضني ، لا معنى للمقاومة »

١٢

لكنها هزت رأسها ، لأنها تعلم أنه ليس من المحال على الإطلاق
مقاومته ؛ كانت تعرف الرجال وموقفهم حيال جسد المرأة ، وكانت

تعلم انه حتى التالية الأكثر حماسة في الحب لا يمكنها ان تنتزع عن سطح الجسد طاقته المخيفة ؛ طبعاً ، ما تزال تمتلك رشاقة مناسبة تملأ ، حافظت على أبعادها الأولية ، وما تزال تمتلك مظهر الشباب تملأ ، لا سيما عندما تكون مرتدية ملابسها ، لكنها كانت تعلم أنها بتعريفها ستظهر تفضيلات عنقها وإناها ستعري جرحها الطويل ، الناجم عن عملية في المعدة أجرتها قبل عشرة أعوام .

وكما كانت تستعيد وعيها بمظهرها الجسدي الحالي الذي نسجه منذ بضعة لحظات ، كانت همومها صبيحة اليوم تصعد من أعماق الطريق حتى نافذة الشقة (التي اعتقدت أنها عالية بما فيه الكفاية حتى تضمها في منأى عن حياتها) وتملأ الحجرة ، وتستقر على اللوحات المؤطرة ، وعلى الأريكة ، وعلى الطاولة ، وعلى فنجان القهوة الفارغ ، وكان وجهه لونها يقود موكبها ؛ فحين لمحت ، أحمرت وبحثت عن ملجأ في مكان ما من قرارة نفسها : كادت المجنونة التي كانتا تبتعد عن الطريق الذي رسمه لها والذي اتبعته حتى الآن بالابتسامة والكلمات الحماسية ؛ كانت قد أرادت (حتى لبرهة قصيرة) الفرار ، وإذا بها يترتب عليها استئناف طريقها بوحدة والاعتزال بأنه اللرب الوحيد الذي يلائمها . كان وجه ابنها ساخراً حتى أنها شعرت بنفسها في غمرة خجلها ، أنها تصبح صغيرة أكثر فأكثر أمامه ، لكي لا تكون بعد ، في قمة الدل ، إلا الجرح الذي كان على معدتها .

كان مضيقها يمسكها من كتفيها ويردد : « لن يكون هناك معنى للمقولة » وكانت تهز رأسها ، لكن بطريقة عاقية تملأ ، لان عينيها لم تكونا تشاهدان المضيف ، بل وجه الابن الغريم الذي كانت تمقتة اكثر كلما شعرت بنفسها اصغر واكثر ضعة . كلت تسمعه يلومها على الضريح المختفي ، ومن تشوش ذاكرتها ، وباحتقار لكل منطق ، انبعثت هذه الجملة التي صرختها في وجهه بنحق : يجب على الاموات القدامي إخلاص المكان للاموات الجدد يا صغيري !

١٣

لم يكن بوسعه بعد الاشتباه بأن ذلك سيؤول إلى التقرز ، لأن النظرة التي صار يوجهها إليها الآن (نظرة منقبية وثاقبة) لم تكن مستثناة من بعض التقرز ، ولكن الأمر الغريب أن ذلك لم يكن يضايقه ، بل يشبه ويهيج ، كأنه كان يتمنى هذا التقرز : كانت رغبة الجنس تقترب فيه من رغبة التقرز ، وكانت رغبته في أن يقرأ على جسدها ما اضطر إلى تجاهله منذ زمن طويل تمتزج برغبة تلطيف السر المفصوح حديثاً في الحال .

من أين كانت تأتيه هذه الشهوة ؟ سواء اشعر بها أم لا ، كانت فرصة وحيدة تقدم له : كانت زائرته تجسد بالنسبة له كل ما لم ينله ، وكل ما فر منه ، وكل ما كان غيابه يجعله لا يحتمل عمره الآن مع شعره الذي بدأ يسقط وهذه النتيجة الفارغة المثيرة للشفقة ؛ وهو الذي أدرك ذلك بوضوح أو اشتبه به يفوض ، صار بوسعه الآن أن يحرم من المعنى كل أفراحه التي حرم منها (والتي كانت ألوانها المثيرة تجعل حياته بلا لون على نحو مؤسف) ، أصبح بوسعه اكتشاف أنها كانت ساخرة وأنها لم تكن إلا مظهراً وإخفاً ، وأنها لم تكن إلا غباراً مثاراً ، أصبح بوسعه الثار منها وإذلالها والقضاء عليها .

أخذ يردد وهو يرغم نفسه على جلبها إليه « لا تقاوميني » .

١٤

كانت تسمات ابنها الهائلة ما تزال نصب عينيها وعندما جذبها مضيقاً إليه بقوة ، قالت : « اتركني لبرهة من فضلك » وهربت منه ، كانت تخشى في الحقيقة من قطع شريط أفكارها : كان يجب على الأموات القدماي إخلاء المكان للأموات الجدد والنصب لا تفيد بشيء ، حتى ذلك النصب الذي رفعه الرجل الموجود إلى جوارها الآن في ذاكرته

طيلة خمسة عشر يوماً لم يكن يفيد بشيء ، أضحت كل النصب من أجل
لا شيء ، من أجل لا شيء . ذلك ما راحت تقول لابنها في تفكيرها ، وأخذت
تنتظر برضى تأري إلى وجهه الذي ينقبض ويصرخ فيها : « لم تتكلمي
أبداً يا أمي هكذا ! » كانت تعلم جيداً أنها لم تتكلم هكذا أبداً ، لكنها
غدت في هذه اللحظة مفعمة بنور يجعل كل شيء جلياً تملأ .

ليس لها الحق بإعطاء النصب الأفضلية على الحياة ؛ فنصبها ليس
له بعد مبرر واحد للوجود : بوسعها تسخيرها الآن لمتعة جسدها المحترق ،
لأن الرجل الجالس بجوارها يعجبها ، إنه شاب ، والأرجح (وحتى
شبه مؤكد) أنه الرجل الأخير الذي يعجبها والذي يمكنها الحصول
عليه ، وهذا وحده المهم ، وإذا الهيمته بعد ذلك التقرز وهلمت نصبها
في تفكيره ، فستسخر من ذلك ، لأن هذا النصب موجود خارج نفسها ،
كما توجد خارج نفسها ذاك الرجل وتفكيره ، وليس مهماً ما يوجد
خارج نفسها ، « لم تتكلمي أبداً يا أمي هكذا ! » كانت تسمع تعجب
ابنها ، لكنها لم تكن تعيرها انتباهاً . كانت تبسم .

قالت بركة : « إنك نحق ، لماذا سأقول ؟ » ونهضت . ثم بدأت
تحل أزراير ثوبها بهدوء . كان المساء ما يزال بعيداً . هذه المرة كان
الضياء نغم في الحجرة .



لن يضحك احد

١

قالت لي كلارا : « اسكب لي كأس نبيد آخر » فاذعنت ، ولكي نشرب زجاجة النبيذ تذرعنا بحجة عادية لكنها تستوقف : فقد قبضت يومئذ مبلغاً كبيراً لقاء دراسة طويلة نشرتها مجلة تاريخ الفن .

وإذا كان قد قبض للعراستي أن تنشر ، فإن ذلك لم يتم بيسر . لأن ما كتبته لم يكن سوى ترهات ومهارات كلامية . ولذلك رفض أعضاء هيئة تحرير مجلة الفكر التشكيلي الكبار في السن والمحافظون النص الذي مهلت به أخيراً إلى مجلة منافسة ، صحيح أنها أقل شأناً ، لكن محرريها أكثر شباباً وطيشاً .

كان ساهي البريد قد أحضر لي إلى الكلية حوالة مصرفية بالإضافة إلى رسالة . ولم تكن رسالة هامة لذلك تصفحتها بسرعة في الصباح وأنا مزهو بمكانتي الجديدة . لكنني بعد عودتي إلى المنزل ، وبينما كنا نقترّب من منتصف الليل ، والنبيذ في الزجاجات يتناقص ، تناولت الرسالة عن مكتبي وقرأتها على كلارا بفرض التسلية :

« الرفيق العزيز - واسمح لنفسي باستخدام عبارة - الزميل العزيز - اعذر رجلاً لم تكلمه أبداً في حياتك بأن يبيع لنفسه الحق بدراسلتك . أتوجه إليك راجياً منك أن تتكرم بقراءة المقالة المرفقة ، لا أعرفك شخصياً لكنني أحترمك ، لأنك في نظري الرجل الذي بدت لي دائماً آراؤه ومنطقه واستنتاجاته تعزز بطريقة مدهشة نتائج بحوثي الشخصية . . . » ثم يسهب في تقرير طواهي ويقدم لي التماساً : يطلب مني أن اسدي له معروفاً بكتابة تعليق قراءتي إلى مجلة الفكر التشكيلي

التي ما زالت ترفض وتلم مقالته منذ ستة أشهر . وقد أخبروه بأن رأيي سيكون حاسما بحيث أصبحت أمله الوحيد منذ ذلك الحين وببصيص الضوء الوحيد في دياجير المعنيدة .

كنت أبادل مع كلارا أنواع الفكاهات عن السيد زاتيروكي الذي سحرنا اسمه الرنان ؛ وهي فكاهات ودية بالتأكيد ، لأن التقرّظ الذي وجهه إلي جعلني سمحا ، ولا سيما وأن زجاجة النبيذ الفاخر في متناول يدي . وقد جعلتني تلك السماحة الغامرة في تلك اللحظات الراضية في المذاكرة أشعر بلحج حيال جميع الناس . وبما أنه من غير الممكن تقديم هدايا لكل الناس فقد كنت أقدم بعضها إلى كلارا . وهي وإن لم تكن هدايا ، فهي تعود على أية حال .

كانت كلارا البالغة من العمر عشرين عاما فتاة من أسرة طيبة ، لماذا أقول طيبة وليس أسرة راقية ! فقد طرد والدها ، وهو مدير بنك سابق ومن ثم ممثل البرجوازية الكبيرة ، من مدينة براغ حوالي عام ١٩٥٠ . وذهب للإقامة في قرية سيلاكوفيس الواقعة على مسافة بعيدة من العاصمة . أما ابنته التي حصلت على درجات منخفضة في قسم الملاك الإداري ، فقد كانت تعمل خياطة أمام آلة خياطة في ورشة كبيرة تابعة لمؤسسة الملابس الجاهزة في براغ . في ذلك المساء وأنا جالس مقابلها ، كنت أستمع لها نحوي من طريق التلفاز أمامها دون ترو بحسنات الوظيفة التي أتمتها بالحصول عليها بمساعدة أصدقائي . أكدت لها بأنه من غير المقبول أن تضع فتاة في غابة اللطف جمالها أمام آلة خياطة وقررت بأن عليها أن تصبح عارضة أزياء .

لم تعارضني كلارا وقضينا الليل في وفاق سعيد .

٢

ها نحن نجتاز الحاضر بعيون معصوبة ، أقصى ما بوسعنا الشعور به والاكتشافه هو أننا ما زلنا نحيا ، فيما بعد وحسب ، وعندما نزول الفشاوة ونسترجع الماضي ، ندرك ما عشناه ونفهم معناه .

كنت أحسب في ذلك المساء أنني اشرب نخب نجاحي ولم يراودني
أي شك بأن ذلك تدشين رسمي لنهايتي .

واللأنني لم أشتبه بشيء ، فقد استيقظت في اليوم التالي مبتهجا ،
وبينما كانت كلارا ما تزال غافية بعمق تناولت القلعة المرفقة برسالة
السيد زاتيروكي ورحت أقرأها في فراشي باستخفاف ممتع .

لم تكن المقالة المعنونة بـ « معلم الرسم التشيكي ميكولاس اليس »
تستحق حتى تلك النصف الساعة الالهية التي أمضيتها في قراءتها .
فقد كانت مبالغة من اللمعة من أفكار مبتدلة مجمعة دون أدنى ترابط منطقي
ودن اية فكرة مبتكرة .

كانت بالتأكيد حماقة ، هذا ما اكده لي هانفيا في اليوم نفسه
الدكتور كالوزيك رئيس تحرير مجلة الفكر التشيكي (وهو ذو شخصية
سبحة على العموم) فقد اتصل بي في الكلية وقال لي : « هل تلقيت
مقالة السيد زاتيروكي ؟ حسنا ، كرم علي بتحرير تعليقك ، لقد انتقد
خمس أخصائيين مقالته ، لكنه ما يزال يلح ويحسب أنك المرجع الوحيد
والفريد ، اكتب في بضع سطور أن مقالته سخيفة ، يوسعك القيام بذلك ،
ويمكنك أن تكون لاذعا ، وهكذا سيدعنا وشأننا » .

لكن امرأ ما في دخيلي تمرد : لماذا يترتب علي ، أنا على وجه
التحديد ، أن أصبح جلاد السيد زاتيروكي ؟ وهل سأقبض راتب رئيس
التحرير لقاء ذلك ؟ ومن جهة أخرى ما زلت اذكر أن مجلة الفكر
التشيكي ارتأت بطرح رفض دراستي ؛ عداً عن أن اسم السيد زاتيروكي
اقترن في ذهني بذكرى كلارا وزجاجة نبيذ وامسية جميلة . أخيراً لن
أكرر ، وهذا ينسجم مع الطبيعة الانسانية ، بأنه يمكنني أن أعد على
اصابع يدي وحتى إصبع واحد الناس الذين يعتبرونني « المرجع
الوحيد والفريد » فلماذا أجعل من هذا المعجب الوحيد غريباً لي ؟

انتهت المكالة مع كالوزيك ببضع كلمات مزحة ، وغامضة ، كان
يوسع كل واحد منا ان يعتبرها كما يشاء ، هو كوعد وأنا كتملص ، ثم
اغلقت الهاتف وأنا مصمم على عدم كتابة تعليق القراءة بصدد مقالة
السيد زاتيروكي .

وهكذا تناولت ورقة رسائل من درجي وكتبت رسالة للسيد
زاتيروكي تجنبت فيها بحرص إبداء أي رأي حول عمله وشرحت له ان
أفكاري حول فن الرسم في القرن السابع عشر تعتبر على العموم خاطئة ،
لا سيما في هيئة تحرير مجلة الفكر التشكيلي ، بحيث يخشى أن يؤذيه
تدخلتي أكثر من أن يفيد . وفي الوقت نفسه كنت أعتقد على السيد
زاتيروكي بكلام ودي يرغمه على تبين مظهر التعاطف معه .

وحالما وضعت تلك الرسالة في صندوق البريد ، نسيت السيد
زاتيروكي . لكنه لم ينسني .

٣

وذات يوم ، بعد أن أنهيت محاضرتي (فأنا أدرس مادة تاريخ الرسم)
جاءت السيدة ماري تطرق باب الصف ، وهي سكرتيرة وسيدة لطيفة
مسنة تعد لي القهوة وتجيب بأنني لست موجوداً عندما اتصل بالهاتف ،
أصوات انثوية غير مرغوبة . اطلت برأسها وقالت لي بأنه يوجد سيد
ينتظرنني .

لا أشعر بالرهبة من السادة . فاستأذنت طلابي بالإنصراف وخرجت
منشرح الصدر إلى الممر حيث حياني سيد ذو قامة قصيرة ويرتدي طعماً
أسود بال وقميصاً أبيض . ثم أخبرني بلحترام فائق أنه يدعى زاتيروكي .

أدخلت زائري إلى حجرة فارغة وأجلسته على كرسي مريح وبدأت الحديث بنبرة مرحة ، فتكلمت عن كل شيء وعن لاشيء ، من صيف رديء نمضيه وعن معارض براغ . كان السيد زاتيروكي يوافقني بتهذيب على سخافاتي لكنه يحاول ربط كل منها مباشرة بمقالتته التي وجدت فجأة بيننا بفحواها المكنون مثل مغناطيس لا يقاوم .

« قلت أخيراً : كنت سأكتب عن طيب خاطر تعليقاً حول عملك ، لكنني أوضحت لك في رسالتي بأنه ما من أحد يعتبرني أخصائياً في فن الرسم التشيكي في القرن التاسع عشر وبأنني لست على علاقة طيبة مع هيئة تحرير مجلة النزعة التشيكية التي تعتبرني حداً نوياً متمكناً ، حتى أن الراي المؤيد من طرفي لا يمكن إلا أن يؤذيكَ .

— أجاب السيد زاتيروكي بسرعة : أوه ! إنك متواضع جداً ! كيف يمكن لأخصائي مثلك أن يكون متشائماً من موقفه ! قيل لي في هيئة التحرير بأن كل شيء أصبح بعد الآن مرهوناً برأيك . فإن كنت راضٍ عن مقالتي ، ستُنشر . أنت فرصتي الوحيدة . وهذا العمل يمثل ثلاث سنوات من الدراسات والبحوث . كل شيء الآن بين يديك . »

بأي استهتار ومن أي معدن صليبي نسبك حيلنا ! لم يكن أمامي مفر من إجابة السيد زاتيروكي على طلبه ، وحين رفعت بصري عفواً لكي أنظر إليه مباشرة ، شاهدت نظارة صغيرة متيقة وأيضاً تغضناً عميقاً حازماً يحدد جبهته عمودياً . وفي لحظة صفاء وجيزة ، سرت رعدة في أوصالي : لم يكن ذلك التغضن الحذر والمثابر يعبر فقط عن الجهد الذهني لصاحبه العاكف على رسوم ميكولاس اليس ، بل كان يعبر أيضاً عن قوة إرادة نادرة . ولأنني فقدت كل نباهتي ، لم أمد أذني فوق في العثور على الاعتذارات اللبقة بما فيه الكفاية . كنت أعلم بأنني إن أكتب التعليق ، لكنني أعلم أيضاً بأنني عاجز عن مصالحة رجل متوسل بذلك وجهاً لوجه .

رحبت ابتسم وأفره بالومود الفامضة ، فشكرني السيد زاتيروكي
قائلاً بأنه سيعود عما قريب للاستعلام من الموضوع ، ثم غادرته والابتسامات
تنزّاحم على نظري .

وفعلا عاد بعد بضعة أيام ، فنجحت في تفاديه بمهارة ، لكنهم أخبروني
في اليوم التالي بأنه سأل عني ثانية في الكلية . أدركت أن الأمر يسوء ،
فذهبت في الحال للقاء السيدة ماري لاتخاذ التدابير اللازمة .

« من فضلك يا ماري ، إذا ما عاد ذلك السيد وسأل عني فقولي
له بأنني سافرت في بعثة دراسية إلى ألمانيا وأنني لن أعود قبل شهر .
أمر آخر : موعد جميع محاضراتي يومي الثلاثاء والأربعاء . بعد الآن سألقي
محاضراتي يومي الخميس والجمعة . سيعلم طلابي فقط بذلك فلا تخبري
أحدًا بهذا ولا تعدلي البرنامج . يجب أن أبقى متخفياً » .



جاء السيد زاتيروكي فعلا بعد فترة وجيزة يسأل عني في الكلية وبد
يائساً عندما أخبرته السكرتيرة بأنني سافرت على عجل إلى ألمانيا . « هذا
مستحيل ! يترقب على السيد معاون كتابة تعليق على مقالتي ! كيف
استطاع أن يسفر هكذا ؟ - ردت السيدة ماري بسرعة : لا أعلم شيئاً من
ذلك لكنه سيعود بعد شهر . - لئلم السيد زاتيروكي قائلاً : شهر أيضاً
الا تعرفين عنوانه في ألمانيا ؟ - قالت السيدة ماري : لا أرفقه » .

ونعمت بالهدوء طوال شهر .

لكن الشهر انقضى بأسرع مما كنت أتصور وهاد السيد زاتيروكي
إلى مكتب السكرتيرة . قالت له السيدة ماري : « لا ، لم يعد بعد » وحين
التفتني ، سألتني بشيرة متوسلة : « عاد صاحبك ثلثية ، فعلاً تريدني
أن أقول له ؟ - قولي له بأنني مصاب باليرقان في ألمانيا وأنني نزل المشفى
في يينا » هتف السيد زاتيروكي حين أخبرته السكرتيرة بالنبا بعد بضعة

ايام : « في المشفى ؟ لكن هذا مستحيل ، لا بد للسيد المعاون من كتابة تعليق القراءة على مقالتي ! - قالت السكرتيرة بنبوة تعنيف : يا سيد زاتيروكي ، السيد المعاون مصاب بمرض خطير في القربة وانت لا تفكر إلا بمقالتك ! » غاص رأس السيد زاتيروكي بين كتفيه وخرج ، لكنه حضر من جديد بعد خمسة عشر يوما : « أرسلت رسالة مسجلة إلى يينا . فعدلت الرسالة إلى ثانية ! » وفي اليوم التالي قالت لي السيدة ماري : « سأصبح مجنونة من صاحبك . لا تفضب ، لكن ماذا كنت تريدني أن أقول له ؟ قلت له بانكأ عدت ، فعليك أن تتدبر امرك بنفسك معه ! » .

لم الم السيدة ماري ، فقد كنت تبذل قصارى جهدها وفوق ذلك لم تكن عازما على الاعتراف بهزيمتي . كنت أعلم أنني صعب المنال . ولم أعد احيا إلا متخفيا ، فالتقي محاضراتي في الخفاء يومي الخميس والجمعة ، واحضر يومي الثلاثاء والأربعاء متخفيا أيضا ، البد متواريا في عمارة مقابل الكلية واتسلى بمنظر السيد زاتيروكي الذي يترصد خروجي من الكلية . كنت رأغب بوضع لحية وشعر مستعارين . وأجسب نفسي شارلوك هولمز وجاك ليفنترور ، والرجل الخفي يجوب المدينة . كنت في غاية البهجة .

لكن الأمر انتهى بالسيد زاتيروكي ذات يوم إلى التعب من التردد وتلمدى على السيدة ماري « لكن متى يلقي الرفيق المعاون محاضراته ؟ فاجابت السيدة ماري بسرعة : ليس عليك سوى مراجعة البرنامج . وأشارت إلى لوحة مربعة على الحائط حيث توقيت المحاضرات موضح بدقة نموذجية .

— قال السيد زاتيروكي الذي لم ينخدع بذلك : اعرف ، لكن الرفيق لا يأتي أبدا لإلقاء محاضراته يوم الثلاثاء ولا يوم الأربعاء . هل هو متوقف عن العمل ؟

— أجابت ماري بضيق : كلا »

وعندئذ أهان الرجل القصير السيدة ماري . وبخها لأنها لم تضع البرنامج بدقة . سألها بسخرية إن كان يحق لها تجاهل الموعد الذي يلقي فيه الأساتذة محاضراتهم وأعلن أنه سيقدم شكوى ضدها . ثم زعق وصرح أنه سيسكو أيضاً الرفيق المعاون الذي يتغيب عن محاضراته ، سألها إن كان مدير الجامعة موجوداً .

ولسوء الحظ كان مدير الجامعة موجوداً .

طرق السيد زاتيروكي باب مكتبه ودخل . ثم عاد بعد عشر دقائق إلى مكتب السيدة ماري وسألها بجفاف عن عنوان منزلي الشخصي .

« قالت ماري : ٢٠ شارع سكاننيكوفا ، في ليتوميسل .

— وكيف ذلك ، في ليتوميسل ؟

— ليس لدى السيد المعاون إلا منزل مؤقت في براغ ولا يرغب أن أخبرك بعنوانه ...

— صاح الرجل القصير بصوت مرتعش : إنني مصر على معرفة عنوان منزل السيد المعاون في براغ » .

وهنت عزيمة السيدة ماري تماماً . فكتبت عنوان سقيفتي وملجأتي للبائس وخلوتي السعيدة التي أصبحت مطروداً منها .

٥

أجل ، في ليتوميسل عنوان إقامتي الدائم . فهناك أمي وذكريات أمي ؛ وكلما أتيت لي الفرصة ، أغادر براغ كي أذهب للعمل والدراسة في المنزل ، في مسكن أمي الصغير . بحيث أنني احتفظت بعنوان والدتي

كعنوان دائم لاقامتني . اما في براغ ، فلم أفلح في العثور حتى على شقة صغيرة مناسبة مع أن ذلك ضروري وعادي ، وكنت أقطن في الضواحي مستأجراً سقيفة صغيرة مستقلة تحت السقف ، أوي إليها ما انحلت لي الحياة سبيلا لذلك حتى اتحاشى مع صاحباتي المأبرات اللقاء العلبث بالزائرين المقيتين .

لا يمكنني إذا الادعاء بأن سمعني في العمارة كانت ظاهرة الليل تماما . وفوق ذلك ، أسكنت في حجرتي مرارا ، اثناء قضائي لاجازاتي في ليتوميسل ، رفاقي الذين كانوا يمرحون فيها للدرجة أن أحداً في المنزل لم يكن يفلح في إغماض جفنيه طوال الليل . كان كل هذا يثير سخط بعض المستأجرين الذين راحوا يشنون ضدي حملة شعواء أخذت تتبدى من حين لآخر في الآراء التي يتداولها بشائني مجلس الحي وحتى مكتب الشكاوى في دائرة الإسكان .

بدأت كلارا في الفترة التي أتحدث منها تشعر بمشقة المجيء من سيلاكوفيس للعمل في براغ ، فقررت النوم عندي ، يأتيء ذي بدء ، بخجل وفي الحالات الطارئة ، ثم أودعت ثوبا وبعد ذلك عدة ألواب ، وخلال فترة وجيزة انحشرت برتاي في أسفل الخزافة وتحولت سقيفتي إلى صالون نسائي .

كنت أشعر بميل شديد نحو كلارا ؛ ولأنه يسرني أن يلتفت الناس إلينا لدى خروجنا معاً ، ولأنها تصغرني بثلاثة عشرة عاماً وهذا ما كان يزيد من هيبتني في عيون طلابي ؛ وباختصار كان لدي ألف سبب للتمسك بها . ومع ذلك لم أكن أرغب بأن يعرف الناس أنها تسكن عندي . فقد كنت أخشى أن يتجهجوا على مالك منزلي الطيب ، وهو رجل مسن يبدو وقورا وغير مهتم بأمري ، وكنت أخاف أن يأتي ذات يوم ممتعضا ومغموما لكي يرجوني أن أطرده صديقتي حتى يحافظ على سمعته الطيبة . لذلك تلقت كلارا تعليمات صارمة تلزمها بعدم فتح ألباب لأحد .

يومئذ ، كانت وحيدة في المنزل . كلن نهرا جميلا ومشمساً ، أما
جو السقيفة فخانق تقريبا . كانت قد استلقت على أريكتي عارضة
واستغرقت في تأمل السقف .

عندئذ بدأ الباب يطرق .

لم يكن ثمة شيء يدعو للقلق ، بما انه لا يوجد جرس على باب
السقيفة ، فالزائرون مضطرون لقرعه . إذا لم تكن تمكر هذه الموضوعات
صغو كلارا ولم يخطر ببالها ان تقطع تأملها للسقف . لكن الطرق المتوالي
على الباب ظل مستمرا ؛ فقد كان يتواصل على غير العادة بهدوء ومثابرة
غامضة . وانتهى الامر بكلارا لان تصبح عصبية ، فراحت تتخيل أمام
الباب سيداً يتفحص ببرود وعناية ياقة سترته ، سيداً سيسألها بعد
ذلك بفظاظة لماذا لم تفتح الباب ، وعما كانت تخفيه وفيما إذا كانت
مصرحة بعنوانها . رزحت تحت وطأة الشعور بالذنب وكفت عن التحديق
بالسقف واجالت بصرها إلى المكان الذي وضعت فيه ملابسها . لكن
الطرقات كانت لجوجة حتى انها لم تجد في غمرة اضطرابها سوى سترتي .
الواقية من المطر المعلقة في المدخل . ارتدتها وفتحت الباب .

وبدل ان تشاهد على العتبة وجها خبيثاً فضولياً ، فوجئت برجل
قصير يحببها : « هل السيد المعاون في منزله ؟ - لا ، لقد خرج - قال
للرجل القصير : خسارة ، ثم اعتذر بتهذيب : على السيد المعاون كتابة
تعليق القراءة على مقالة افتتها . هو وعدني بذلك وقد أصبح هذا الامر
ملحاً الآن . إذا سمحت ، أود ان اترك له رسالة على كل حال » .

ناولت كلارا الرجل القصير ورقة وقلم رسائل . وفي المساء قرأت
بان مصرير مقالته حول ميكولاس اليس اضحى بين يدي وان السيد
زاتيروكي ينتظر باحترام تحريري للتعليق الموعد . اضاف بأنه سيسال
عني ثانية في الكلية .

٦

أخبرتني السيدة ماري في اليوم التالي بأن السيد زاتيروكي توعد بها
واهانها وكاد أن يقدم شكوى ضدها ؛ كان صوت المسكينة يتهدج ، وتوشك
أن تغرق الدموع ؛ فاعتراضي الغيظ هذه المرة . كنت أدرك وحسب أن
السيدة ماري التي استمتعت حتى ذلك الحين بذلك الجزء من لعبة
التخفي (بدافع التعاطف معي أكثر من دافع اللهو الصريح) ، كانت تشعر
الآن بالإهانة وبالطبع تعتبرني سبب همومها . وحين أضفت إلى هذه
الإهانات اضطراب السيدة ماري للبوح بعنوان ملحق ، فإنه طرق بابي
طيلة عشر دقائق وإخاف كلارا ، فإن غيظي تحول إلى غضب .

وبينما كنت حاضراً ، أتمشى في مكتب السيدة ماري ، وأشعر
بالندم والغليظ وأتخيل طريقة الانتقام ، فتحت الباب وظهر السيد
زاتيروكي .

حين شاهدي ، أشرق وجهه بالسعادة . انحنى وحياني باحترام .

لقد وصل باكراً قبل أن أفرغ من تدبير خطة انتقامي .

سألني إن كنت قد استلمت رسالته في الأمس .

لم أحر جواباً .

كرر سؤاله .

أجبت أخيراً : « أجل »

ـ وهل ستكتب التعليق ؟ »

الفيته أملي : هزلاً وعنيلاً ومخيفاً ؛ كنت أرى التفنن العمودي
الذي يرسم على جبهته علامة شغف فريد ؛ رحت أطمئ تلك العلامة
فأدركت أنها عبارة عن مستقيم محدد بنقطتين : بتعليق القراءة ومقالته ؛

وانه ما عدا آفة هنا الخط الموهوس ، ليس في حياته شيء سوى تزهّد
خليق بقديس . واستسلمت لعدوانية منقّلة .

قلت : « أمل ان تدرك بأنه لم يعد لدي شيء أقوله لك بعدما حصل
في الأمس .

— لا أفهمك .

— لا تتظاهر بما لا تضمّر . لقد أخبرتني بكل شيء . لن يفيدك
الإنكار .

— كرر الرجل القصير من جديد ، لكن بنبرة أكثر حزماً هذه
المرة : « لا أفهمك » .

اتخذت نبرة مرحة وتقريباً ودبة : « اسمع يا سيد زايروكي ،
لا ارجب بلومك . انا أيضاً زير نساء وأفهمك . انا أيضاً لو كنت مكانك
لراودت فتاة جميلة من نفسها بسرور ، إن القيت نفسي وحيداً معها في
شقة وإذا كانت عارية تحت وافي المطر » .

امتقع لون الرجل القصير : « هذه إهانة !

— لا ، إنها الحقيقة يا سيد زايروكي .

— هل أخبرتك السيدة بذلك ؟

— إنها لا تخفي أسرارها عني .

— هذه إهانة أيها الرفيق المعاون ، إنني متزوج ! عندي زوجة !
ولدي اطفال « تقدم الرجل القصير خطوة إلى الأمام ، فاضطرت للاتكفاء
إلى الخلف .

« وهذا ظرف مشدد للعقوبة يا زائيرفاكي .

— ماذا تعني ؟

— اعني ان الزواج بالنسبة لزير النساء هو جالة مشددة للعقوبة .

— قال السيد زائيرفاكي بنبرة متوعدة : ستتراجع عن هذه الكلمات !

— قلت : موافق ! الزواج بالنسبة لزير النساء ليس حالة مشددة للعقوبة . لا أهمية لهذا ! قلت لك بأنني لست غائباً عليك وأنني أفهمك تماماً . لكن رغم كل شيء ثمة أمر لا أحتمله ، وهو أنك تستطيع مطالبة رجل بتحرير تعليق القراءة حول مقالتك بينما تحاول إغراء صديقتك .

— الرفيق المعاون ! إن من يطلب التعليق هو السيد كالوزيك الحائز على دكتوراه في الآداب ورئيس تحرير مجلة الفكر التشكيلي ، المجلة الدورية الصادرة بإشراف أكاديمية العلوم ، وعليك أن تكتبه !

— اختر ! التعليق أم صديقتي . لا يمكنك أن تبغلي كليهما .

— هتف السيد زائيرفاكي وقد وقع فريسة غضب يائس : « ما هذا السلوك ! »

أمر غريب ، فقد صار يرادوني شعور مفاجيء بأن السيد زائيرفاكي نوى حقيقة إغراء كلارا . انفجرت بلسوي ورجت أذني : « أسمع لنفسك بوعظي ؟ أنت الذي يفترض بك أن تقدم لي ما يوسعك من الاعتذارات أمام سكرتيرتي ! »

وأوليت ظهري للسيد زائيرفاكي الذي خرج من الحجرة مترنحاً ويأثساً .

« الحمد لله ! » قلت مطلقاً تنهيدة بعد هذه المعركة الصعبة لكن
منتصراً ، واضفت من أجل السيدة ماري : « اعتقد انه سيريحني الآن
من تعليق القراءة ! »

« ولماذا لا تريد أن تحرر له ذلك التعليق ؟ »

— لأن مقالته باعريزي ماري عبارة من سلسلة من السخافات .

— ولماذا لا تكتب تعليقاً لنقول فيه بأنها سلسلة من السخافات ؟

— ولماذا علي أنا كتابة ذلك ؟ ولماذا يترتب علي أنا أن أصنع لنفسني
أعداء ؟ »

كانت السيدة ماري تنظر إلي وعلى محياها ابتسامة عريضة عندما
فتح الباب من جديد ؛ فظهر السيد زابيتروكي ماداً ذراعه أمامه :

« سنرى من سيقدم الامتيازات للآخر ! »

فلذ هذه الكلمات بصوت متهدج واختفى .



لم اعد اذكر بدقة ، في اليوم نفسه ام بعد بضعة ايام ، وجدنا ملفاً
دون عنوان في صندوق البريد . كان الملف يحتوي على ورقة قرانا
فيها هذه الكلمات المكتوبة بخط غليظ ووديء : سيدتي ! تعالي إلى
منزلي يوم الاحد لكي نتكلم من الإهانة التي لحقت بزوجي ! ساكون في
المنزل طيلة النهار ، إذا لم تأت ، سألقي نفسي مضطرة للتصرف .
أنا زابيتروكي ، براغ ، الشارع ٣ ، داليمولوا ١٤ .

شعرت كلارا بالخوف وراحت تحملني المسؤولية. طردت مخاوفها
بظاهر يدي وأكدت لها أن معنى الحياة هو تعاملاً باللهو مع الحياة ، وبما

ان الحياة رتيبة جداً لذلك يجب تظييفها من ركودها . وعلى الانسان
دوماً أن يسرّجَ الحصنة عديدة من أجل مغامرات جديدة وإلا قد يتعقر
في التراب مثل جندي مشاة متعب . عندما اجابتنى كلارا بأنها لا تنوي
الإسراج لاية مغامرة ، وعدتها بأنها لن تقابل أبداً السيد زاتروكي ولا
زوجته ، وإن المغامرة التي اخترت طوعاً امتطاهها ، ساروفسها دون
مباعدة أحد .

استوقفنا البواب في الصباح حين كنا نخرج من العمارة . البواب
ليس غريباً . كنت قد منحته من دراية خمسين كوروناً منذ بعض الوقت
وأصبحت مستسلماً منذ ذلك الحين لاعتقاد مبهج بأنه اعتاد التفاوض
عني وأنه لم يعد يشر الضفائن التي يغلبها اعتائني في العمارة ضدي .

قال : « طلبك شخصان البهرجة .

— من هما ؟

— قزم مع زوجته .

— كيف كانت زوجته ؟

— كانت أطول منه برأسين . امرأة حازمة جداً . صالمة . طلبت
معلومات من كل شيء ثم خاطب كلارا : « لا نسيماً عنك . كانت تريد معرفة
من تكونين وما اسمك .

— صالحت كلارا : يا الهي ، وماذا قلت لها ؟

— وماذا تريدان أن أقول لها ؟ وهل أمرف من يأتي إلى منزل السيد
المعلون ؟ أخبرتها بأن فتاة جديدة تزوره في كل مساء .

— قلت : هلذا ممتاز ، وأخرجت قطعة نقدية من فئة ١٠ كورون
من جيبتي . تلعب هكذا !

— قلت بعد ذلك لكلا را : لا تخشي شيئاً ، لن تذهبى يوم الأحد إلى أى مكان ولن يعترض سبيلك أحد » .

جاء يوم الأحد وعلاه الاثنين والثلاثاء والأربعاء . لم يحدث شيء . وقلت لكلا را « هل رأيت » .

لكن يوم الخميس أقبل . كنت قد شرحت لطلائعى ، فى موعد المحاضرة السرى كالمعدة ، كيف حرر اتباع المدرسة الوحشية الشباب بتضامنهم النبيل وحماسهم اللون من الانطباعية الوصفية ، حين جاءت السيدة مارى وفتحت الباب وقالت لى بصوت خافت : « زوجة زائىروكى تسال عنك ! — لكنك تعلمين باننى لست هنا ، دليها على البرنامج » لكن السيدة مارى هزت رأسها : « قلت لها بأنك لست موجوداً لكنها ألقت نظرة على مكتبك وشاهدت سترتك الواقيلة من المطر معلقة على المشجب . وهى ما تزال تنتظرك فى المعمر » .

الوقوف فى مائزق هو مجال لاختبار عبقريتى الخارقة . قلت لطلابى الأخير : « هل يمكنك أن تؤدى لى خدمة ؟ اذهب إلى مكتبى وارثدى سترتى الواقية من المطر واخرج من الكلية ! ستحاول امرأة التأكد من أنك أنا ، لكن مهمتك بالفضبط هى إنكار ذلك بأي ثمن » .

خرج الطالب وعاد بعد ربع ساعة . أخبرنى بأن المهمة انجزت والطريق سالكة والسيدة انصرفت .

لقد رجعت هذه المرة .

لكن يوم الجمعة جاء ؛ وعندما عادت كلا را من عملها فى المساء كانت ترتعش .

فى ذلك اليوم ، فتح السيد اللبق الذى يستقبل زبائنه فى صالة المؤسسة الأنيقة فجأة الباب المفضى إلى داخل الورشة التى تعمل بها

كلارا ، وهي عاكفة على مكتبة خياطة بصحبة خمسة عشرة عاملة أخرى ،
وصاح : « هل تقطن إنداكين في هـ ، شارع دي شاتو ؟ » .

أدركت كلارا في الحال أنها المقصودة ما دام هـ ، شارع دي شاتو
هو عنواني . لكنها بسبب الخرص الشديد الذي رَسَخَتْه في ذهنها بعناية ،
لم تخطيء ، لأنها تعلم بأنها تسكن عندي خفية وبأن ذلك لا يخص أحداً .
فقال السيد اللبق وهو يلاحظ أن العاملات قد صمتن : « وهذا ما قلته
لها بالضبط » ثم خرج . علمت كلارا بعد ذلك أن صوتاً انثوياً صارماً
أرغمه من خلال محادثة هاتفية على مراجعة عنلويين مستخدماته وحاول
جاءداً طوال ربع ساعة إقناعه بأن إحداهن تسكن ولا بد في هـ - شارع
دي شاتو .

خيم شبح السيد زاتيروكي على سقيفتنا البريئة .

قلت رافعاً واثيرة صوتي : « لكن كيف تسنى لها اكتشاف مكان
عملك ؟ لا أحد هنا في العمارة يعلم شيئاً منك ! »

أجل ، كنت بالفعل مقتنعاً بأن أحداً لا يعلم شيئاً عن حياتنا . كنت
أعيش مثل هؤلاء الأشخاص الغريب الأطوار الذين يعتقدون بأنهم يفلتون
من نظرات التعطل بالتجائهم إلى الأسوار العالية ، لأنهم يتغافلون عن
إدراك امر ثانوي : وهو أن تلك الأسوار من الزجاج الشفاف .

كنت أرشو البواب لكي لا يبوح بأن كلارا تقيم عندي ، وافترض
على كلارا التكتّم والتخفي الصارمين ، ورغم ذلك ، علم كل قاطني العمارة
بوجودها . حسبها أنها تورطت ذات يوم في محادثة متهورة مع مستأجرة
في الطابق الثاني فأصبح الناس يعرفون أين تعمل .

ودون أن ننتبه للأمر ، كنا مفضوحين منذ زمن طويل . امر وحيد
ما زال بعيداً عن منفصاتنا : اسم كلارا . وبفضل هذا السر الصغير كان

ما يزال بوسعنا القرار من السيدة زاتيروكي التي تخوض الصراع بروح منهجية وعناد يجعل القشعريرة تسري في جسدي .

أدركت أن الأمر أصبح جدباً ، وأن جواد مفامرتي قد أسرج جيداً هذه المرة .



حصل ذلك إذا يوم الجمعة . وحين عادت كلارا من عملها يوم السبت كانت أيضاً مرتعشة تماماً . وإليك ما حدث :

جاءت السيدة زاتيروكي بصحبة زوجها إلى مؤسسة الألبسة الجلزة التي هاتفتها بالأمس ، وطلبت من المدير الأذن بزيارة الورشة مع زوجها وتفحص وجوه العاملات الحاضرات . وطبعاً اندهش الرفيق من التماس كهذا ، لكن كان من المستحيل صرف النظر عن الأمر أمام موقف السيدة زاتيروكي . تفوهت ببضعة كلمات مخيرة تتعلق بموضوع القذف والشتم والحياة البائسة والقتضية . كان السيد زاتيروكي يقف إلى جانبها صلتاً وماقداً حاجبيه .

وهكذا دخلا إلى الورشة . رفعت الخياطات رؤوسهن بلامبالاة وتعرفت كلارا على الرجل القصير ، فشحب وجهها وتلبعت الخياطة برؤاها بالفة .

قال المدير بتهديب ساخر للزوجين اللذولين : « أرجوكم » أدركت السيدة زاتيروكي بأن عليها الإمساك بزمام المبادرة فقالت مشجعة زوجها : « حسناً ، أنظر ! » رفع السيد زاتيروكي بصره الكثيب الذي جال الحجرة من أولها إلى آخرها . سألت السيدة زاتيروكي بصوت خافت : « هل هي هنا ؟ »

ورغم ارتدائه نظارتيه ، لم تكن لدى السيد زاتيروكي قوة الإبصار الكافية لكي يحتضن بنظرة هذا المكان الفسيح المضطرب ، المزدهم بكل

انسحب وبالألبس المعلقة على قضبان طويلة اقية، مع العاملات المشاغبات اللاتي لم يقتربن للوقوف ساكنات مقابل الباب ، بل كن يولين ظهورهن ويتحركن على كراسيهن ويرفعن أو يشحن وجوههن . عقد السيد زاتيروكي اخيراً العزم على التقدم في الورشة لكي يتفحصهن الواحدة ثو الأخرى .

حين الفت النسوة انفسهن محط انظار شخص غير جناب ، امتراهن شعور غامض بالحجل وعبرن عن استيائهن بالمزاح وللحنحة . هتفت إحداهن وهي شابة جريئة : « يفتش في كل مكان عن العاهرة التي حبل منها ! » .

انصب ضحك النساء الشديد والرنان على الزوجين اللذين جابهاء بكبرياء غريب ، خجلين ومثابرين .

« صاحت الوقحة للسيدة زاتيروكي : ماما ، انت تهملين ولدك ! لو كان لدي غلام في جماله لما تدخل فيما لا يعنيه .

— انظر » اخذت الزوجة همس لزوجها ، والرجل القصير المسكين ، بهيئة كثية وخجلة ، يطوف في الورشة خطوة خطوة ، كانه يتقدم بين صفين من الضربات والإهانات ، لكن بعشية واثقة ودون أن ينهوا عن تعللي أي وجه .

راح المدير اثناء هذا المشهد يتسم ابتسامة محايدة ، فهو يعرف عملاته ويعلم أنه لن يتغلب عليهن ، لذلك توجه بالسؤال الى السيد زاتيروكي متظاهراً بعدم سماع ضجيجهن : « لكن كيف كانت تلك المرأة ؟ »

التفت السيد زاتيروكي نحو المدير واجاب بصوت هاديء وخفيض « كانت جميلة ... جميلة جداً ... » .

بدات كلارا في هذه الأثناء تنكمش على نفسها في ركن الحجره، وتتميز عن جميع هؤلاء النسوة الطباخيات بهيئتها القلقة ورأسها المطاطيء

ونشاطها المحموم . آه ، ما اردا دور الفتاة المتواضعة والنزوية الذي
تؤديه ! والسيد زاتيروكي بات الآن على مسافة خطوتين من آلتها ، وبوشك
ان يتفرس فيها بين لحظة وأخرى !

لفت الرفيق المدير بأدب نظر السيد زاتيروكي : « أنت تتذكر انها
كانت جميلة لكن هذا لا يفيد شيئاً يوجد الكثير من النساء الحميلات !
كانت طويلة ام قصيرة ؟

— قال السيد زاتيروكي : طويلة .

— سمراء ام شقراء ؟

— اجاب السيد زاتيروكي بعد لحظة من التردد : شقراء .

يمكن لهذا الجزء من قصتي ان يضرب مثلاً على سطوة الجمال، فحين
شاهد السيد زاتيروكي كلارا في منزلي ، فتنه جمالها للدرجة انه لم يراها
في الحقيقة . كان الجمال يبسط امام عينيه نوعاً من الحاجز الكتوم .
حاجز ضوئي يحجبها كالخمار .

لان كلارا ليست طويلة ولا شقراء . وحده المعيار الداخلي للجمال
كان يفسح المجال امام ناظري السيد زاتيروكي لإظهارها بهيئة الطول
الجسدي . ولكن النور المنبعث من الجمال يبدي شعرها بلون ذهبي .

حين وصل الرجل القصير اخيراً إلى زاوية الحجرة حيث كانت
كلارا بمزيجها الكستنائي تعكف على اجزاء تنورة بتلمل ، لم يعرفها .
ام يعرفها لأنه لم يكن قد شاهدها ابداً .

٩

بعد ان اتمت كلارا سرد حكايتها بأسلوب ركيك لكنه واضح ، قلت
لها : « كما ترى ، نحن محظوظان ! » .

لكنها استنكرت وهي تنتحب : « كيف تكون محظوظين ؟ إذا لم يجداني اليوم ، فسيعثران علي في الغد .

— أود أن أعرف كيف .

— سيأتيان للبحث عني هنا ، في منزلك .

— لن أفتح الباب لأحد .

— وإذا أرسلنا الشرطة ؟ وإذا أصرا ورغمناك على البوح بإسمي .
لقد تكلمت عن رفع شكوى تتهمني فيها باغتصاب زوجها .

— أرجوك ! سأجعلها هزأة . لم يكن كل ذلك سوى مزحة .

— ليس هذا عصر المزاح ، فالناس في الوقت الحالي يخلون كل شيء على محمل الجد ؛ سيلميان بأنني أردت تطليخ سمعته عمداً .
كيف تريد أن يصدق الناس بأنه أراد إفراء امرأة عندما سيرونه ؟

— قلت : إنك محقة يا كلارا ، وسيلقى القبض عليك على الأرجح .

— أجليت كلارا : إنك تهدي بالحماقات . فأنت تعلم بأنه يجب على أن أكون حلوة . ولا تنسى من هو والدي . إن مثولي أمام محكمة جزائية ، حتى لمجرد التحقيق ، سيدرج في ملفي ، ولن أتخلص أبداً من الورشة . بهذا الخصوص ، أود لو أعرف أين هي وظيفة عارضة الأزياء التي وعدتني بها . ومن جهة أخرى ، لم أعد أرغب بقضاء الليل في منزلك ، هنا سأظل خائفة من أن يأتيان للبحث عني ، سأعود إلى سيلاكوفيس » .

كانت هذه أول مناقشة في النهار .

وحدثت مناقشة أخرى بعد ظهر اليوم نفسه ، بعد اجتماع الهيئة
التدريسية في الإدارة .

أدخلني مدير الإدارة ، وهو باحث ضليع في تاريخ الفن وسيد
متسامح ، أدخلني الى مكتبه .

قال لي : « الدراسة التي نشرتها مؤخراً تزعزع كثيراً من مركزك ،
وأنت تعلم ذلك على ما أعتقد .

— أجبت : أجل ، أعلم ذلك .

— هنا في الكلية ، يشعر أكثر من أستاذ انه المقصود ومدير الجامعة
يحسب أنها هجوماً موجهاً ضد أفكاره .

— قلت : وما الضرر في ذلك ؟

— أجاب الأستاذ : لا شيء . لكن معاونين معينون لمدة ثلاث سنوات .
وما يعنيك في هذا الأمر هو ان الفترة توشك تقريباً على الإنتهاء ،
وسيمنح المنصب في مسابقة على الألقاب . من المعروف طبعاً ان المجلس
يقبل المنصب لمرشح دَرَس سابقاً في الكلية ، لكن هل أنت متأكد من انهم
سيأعوان هذا العرف في حالتك ؟ أخيراً ، ليس هذا ما كنت أريد
محادثتك به . حتى الآن ما تزال توجد حجة لصالحك . كنت تلقي
محاضراتك بنزاهة وقد أحبك الطلاب وتعلموا شيئاً مفيداً منك . لكن
لم يعد بوسعك التعويل حتى على ذلك ، أخبرني مدير الجامعة للتو بانك
لم تلق محاضرات منذ ثلاثة اشهر بدون اي عذر . وقد يكون هذا سبباً
كافياً لفصلك فوراً » .

شرحت للأستاذ بأنني لم أهمل أية محاضرة ، وإن كل ذلك لم يكن
سوى مزحة وأخبرته بتفاصيل قصة زاتيروكي وكالرا .

قال الأستاذ : « حسناً ، أصدقك . لكن تصديقي لك لا يغير شيئاً في القضية . ينحى الآن في كل الكلية بأنك لا تلقي محاضراتك . فقد أثير الموضوع سابقاً في لجنة المشروع ، وبالأمر من مجلس الكلية .

— لكن لماذا لم تكلموني عن هذا الأمر من قبل ؟

— عن ماذا تريد أن تكلموك؟ كل شيء واضح علي ما يبدو . يراجعون الآن كل مسيرتك الماضية ويبحثون عن علاقة بين ماضيك وموقفك الحالي .

— ما السوء الذي يمكن أن يجدره في ماضي ؟ أنت نفسك تعلم مقدار حبي لعلمي . لم أتخلف أبداً عن محاضرة . إنني مرتاح الضمير .

— قال الأستاذ : كل حيلة إنسانية تزخر بالمعاني . فمهما يكن ماضي أي شخص منا ، يمكن أن يصبح سيرة رئيس دولة مثلما يمكن أن يصبح سيرة مجرم ، بحسب الطريقة التي نعرضه بها . لاحظ فقط بعمق حالتك الشخصية . قلما كان الناس يشاهدونك في الاجتماعات ، وحتى عندما كنت تأتي إليها ، كنت تظل صامتاً في الغالب . لم يكن بوسع أحد معرفة ما تفكر فيه على وجه الدقة . إنني أذكر شخصياً أنك كنت تلقي فجأة فكاهاة تثير الشكوك عندما كنا نتناول في أمور جديدة . كانت تلك الشكوك تنسى في الحال ، أما اليوم ، فإنها تتخذ فجأة مفهوماً محدداً عندما يتصيدونها من الماضي . أو تذكر أولئك النسوة اللواتي كنت تجعل السكرتيرة تجيبهن بأنك لست موجوداً ! أو لناخذ دراستك الأخيرة ، فمن خلالها يمكن لأي شخص أن يؤكد بأنها كتبت إنطلاقاً من وجهات نظر سياسية مشبوهة . هذه بالتأكيد ليست سوى وقائع متفرقة ؛ لكن يكفي تأملها على ضوء جريرتك الحالية لكي تشكل مجموعاً مترابطاً يعبر ببلاغة عن عقليتك وموقفك .

— هتفت : لكن أية جريرة ! سأوضح لنا الأمور كما حدثت ؛ وإذا كانت الكائنات الإنسانية كائنات إنسانية فلن يسعها إلا أن تضحك من ذلك .

— كما تشاء . لكنك ستدرك أن الكائنات الإنسانية ليست كائنات إنسانية أو أنك لم تكن تعرف ما هي الكائنات الإنسانية . إنهم لن يضحكوا . إذا شرحت لهم الأمور كما حدثت ، فأنهم لن يتأكلوا وحسب من أنك لم تؤد عملك كما هو مبدون في البرنامج ، أي أنك لم تقم بما يعلبه عليك وأجبك ، بل وأنك فوق ذلك ألقيت محاضراتك خفية ، أي أنك قمت بما لا ينبغي عليك القيام به . سيتأكدون بالتالي من أنك أهنت الرجل الذي كان يطلب منك مساعدته . سيتأكدون من أنك تعيش حياة فاسقة ، وأن فتاة تسكن عندك دون تصريح ، وهذا ما سيؤاد انطباعاً معاكساً تماماً لدى رئاسة لجنة المشروع . سينشر الخبر بالتأكيد والله أعلم أية شائعات سيثير ، وسط الفرحة العامة لأنك اللذين يكرهونك بسبب أفكارك لكنهم يؤثرون مهاجمتك بحجة أخرى » .

كنت اعلم أن الأستاذ لا يسعى إلى إخافتي ولا إلى خداعي ، لكنني كنت أظنه كإنسان أصيل ولم أكن أود الانسياق وراء شكوكه . لقد امتطيت هذا الجواد بنفسه ؛ فليس بوسعي إذا القبول بنزع اللجام من يدي والجموح بي إلى حيث يشاء . كنت مستعداً أخوض المعركة .

ولم يكن الجواد يرفض القتال . حين عدت إلى منزلي ، وجدت في صندوق البريد استدعاء لحضور الاجتماع القادم للجنة الحي .

١٠

كانت لجنة الحي تجتمع حول طاولة طويلة في حانوت قديم خصص لهذه الغاية . دلتني رجل أسمر ، يرتدي نظارتين وذن مائلة ، على الكرسي . شكرته وجلست ثم افتتح الكلام . أخبرني بأن لجنة الحي كانت تراقبني منذ بعض الوقت ، وأنها تعلم جيداً بأنني أعيش حياة فاسقة ، وهذا ما يولد انطباعاً سيئاً في محيطي ؛ وأن مستأجري للعمارة التي أظنها قد اشتكوا أنفاً من عدم قدرتهم على النوم طوال الليل بسبب الضوضاء في منزلي ؛ وأن كل هذا كان يكفي لتكوين فكرة صائبة عن

شخصيتي ؛ وانه فوق ذلك ، جاءت الرفيقة زاتيروكي ، وهي زوجة باحث علمي ، تلتبس مساعدة لجنة الحي : كان يترتب علي منذ أكثر من ستة أشهر تحرير تعليق على العمل العلمي لزوجها ولم أقم بذلك . مع أنني أعلم تماماً أن مصير هذا العمل بين يدي .

« علقتُ مقاطعاً الرجل ذو الدفن المائلة : من الصعب نعت هذا العمل بالعلمي ، لأنه انتحال لأفكار مجمعة !

— تدخلت عندئذ شقراء في الثلاثين من عمرها ، مرتدية ملابس امرأة من المجتمع الراقى ، بايتساسة مشرقة ملتصقة بوجهها (يوماً على ما يبدو) : هذا غريب أيها الرفيق . اسمح لي بأن أطرح عليك سؤالاً : ما هو اختصاصك ؟

— تاريخ الفن .

— وما هو اختصاص السيد زاتيروكي ؟

— لا أعلم شيئاً عنه . ربما يسعى للعمل في الميدان نفسه .

— هتفت الشقراء متوجهة إلى أعضاء اللجنة الآخرين : انتبهوا . أي باحث علمي في اختصاص الرفيق ليس رفيقاً بالنسبة له ، بل غريباً .

قال الرجل ذو الدفن المائلة : سأتابع . قالت لنا الرفيقة زاتيروكي بأن زوجها جاء لقمبالتك في منزلك وصلدف فيه امرأة . ويبدو أن تلك المرأة افترت عليه بعد ذلك أمامك ، مدعية أن الرفيق زاتيروكي حاول مرارودتها عن نفسها . يمكن للرفيقة زاتيروكي طبعاً الإدلاء ببراهين قاطعة يستنتج منها أن زوجها ليس مؤهلاً للإتيان بهذا فعل . تريد معرفة اسم تلك المرأة التي افترت على زوجها ورفع شكوى أمام المحكمة الجزائية للجنة الوطنية ، لأن هذا الإفتراء قد يؤدي زوجها ويحرمه من موارد معيشته » .

حلولت' جاهداً مرة أخرى بتر هذه المشكلة من بدايتها المضخمة
فقلت : « اسمع أيها الرفيق ، لا طائل من كل هذا . الدراسة التي نحن
بصددها ضعيفة جداً للوجه أن أحداً لن يقبل تركيتها ، وبإصرار يفوق
إصراري . وإذا حصل سوء تفاهم بين تلك المرأة والسيد زاتيروكي ،
فذلك رغم كل شيء ليس سبباً للدعوة إلى اجتماع .

— أجابني الرجل ذو الدقن المائلة : لحسن الحظ أيها الرفيق أنك
لست ممن يقرر مناسبة اجتماعاتنا وإذا أصبحت تلمي الأنثى دراسة الرفيق
زاتيروكي لا قيمة لها ، فسنعتبر ذلك ثاراً . لقد قرأت علينا الرفيقة
زاتيروكي الرسالة التي كتبتها إلى زوجها بعد اطلاعك على دراسته .

— نعم ، لكنني لم أذكر في الرسالة كلمة واحدة عن قيمة تلك
الدراسة .

— هذا صحيح . لكنك كتبت إلى الرفيق زاتيروكي بأنك تود
مساعدته ؛ ويبدو واضحاً من قراءة الرسالة أنك كنت تستحسن
دراسته . ولأن تقول بأنها انتحال . لماذا لم تكتب له ذلك في الحال ؟
ولماذا لم تقل له ذلك بصراحة ؟

— قالت الشقراء : الرفيق رجل ذو وجهين » .

في تلك اللحظة تدخلت امرأة مسنة ذات تجعيدة في النقاش ؛ فلامست
في الحال صلب المشكلة : « نود أن نقول لنا أيها الرفيق من هي تلك المرأة
التي صادفها السيد زاتيروكي في منزل ؟ » .

أدركت أنه لم يكن بوسعي علناً تجريد هذه القضية من خطورتها
المضحكة ، وأنه لم يعد أمامي إلا مخرج وحيد : خلط الأوراق وإبعاد
كل هؤلاء الناس عن كلارا وتحويل انتباههم عنها ، كالحيلة التي تحول
انتباه كلب الصيد عن عشبها مفتدية فراخها بنفسها .

قلت : « هذا سؤال مزعج ، لأنني لا أتذكر اسم تلك المرأة .

— سألت المرأة ذات التجعيدة : كيف ؟ إلا تتذكر اسم المرأة التي تعيش معها .

— قالت الشقراء : كانك تتعامل مع النساء بطريقة مثالية أيتها الرفيق .

— قد يمكنني تذكره ، لكن يجب أن أفكر ، هل تعرفون في أي يوم جاء السيد زاتيروكي لمقابلتي ؟

— قال الرجل ذو الدقن المائلة وهو ينظر في أوراقه : كان لحظة من فضلك ، كان يوم ١٤ ، إذا الأربعاء بعد الظهر .

— الأربعاء ١٤ ... انتظروا ... » احتضنت رأسي بين يدي وفكرت . « حسناً ، هذه المرة تذكرت . كانت هيلين » وكنت أتأكد من أنهم يرفعون السمع لي .

« هيلين ... حسناً ، وايضاً ؟

— ايضاً ؟ للأسف لا أعرف شيئاً عنها . لم أرغب بطرح الأسئلة عليها . وإذا أردتم الصدق ، لست متأكداً من أنها كانت تدعى هيلين . كنت أناديه هيلين لأن زوجها بدا لي أشقراً مثل مينيلاس . تعرفت عليها مساء الثلاثاء في مرقص ونجحت في تبادل بضعة كلمات معها حين كان زوجها مينيلاس يشرب الكونياك في الحانة . جاءت لمقابلتي في اليوم التالي وأضمت فترة ما بعد الظهر في منزلي . اضطرت لمغادرتها قبيل المساء بسبب اجتماع في الكلية لمدة ساعتين . عندما عدت ، كانت مشمزة وقالت لي بأن سيداً جاء واغراها . ظنت أنني كنت متواطئاً معه ، فشعرت بالإهانة وبانت ترفض الإصغاء إلي . إذا ، كما ترون ، لم يتح لي المجال لمعرفة اسمها الحقيقي .

— قالت الشقراء : أيها الرفيق ، سواء أكان ما تقوله صحيحاً أو غير صحيح ، يبدو لي من المحال أن يستطيع رجل مثلك تعليم الشباب . كيف اتفق أن الحياة في بلدنا لم تدفعك إلا إلى الشراب وإغراء النساء ؟ ثقب بأننا سنرفع رايتنا في هذه الموضوع إلى من يهمه الأمر .

— تدخلت المرأة ذات التجميدة بدورها : لم يكلمنا البواب من المسوعة هيلين ، لكنه قال لنا بأنك تستضيف منذ شهر فتاة شابة تعمل في مؤسسة للألبسة الجاهزة ودون حصولها على تصريح . لا تنسى أنك مستأجر أيها الرفيق ! هل تظن بأنك تستطيع إيواء أي شخص ؟ هل تحسب منزلك مأخوذاً ؟ إذا كنت لا تريد إخبارنا باسمها ، ستعرف الشرطة كيف تحصل عليه . »

١١

كانت الأرض تميد تحت قدمي . بدأت المسن بنفسه جو السخوط الذي كلمني عنه الاستلا . وبالطبع لم يستدعني أحد بعد ، لكنني كنت أسمع تلميحات من هنا وهناك ، والسيدة ماري تكشف لي بتعاطف عن بعض الأمور التي تدور في المكتب الذي يأتي الأساتذة لتناول القهوة فيه وقلما كانوا يعيرون انتباهاً لأحاديثهم . كان على المجلس أن ينعقد خلال بضعة أيام وكان يتلقى من كل صوب الآراء والتقييمات ، فانتخيل أعضاء المجلس يقرؤون تقرير لجنة الحي ، تلك الوثيقة التي لا أعرف عنها سوى شيء واحد : أنها سرية وليس بوسعي إبداء أية ملاحظة بشأنها .

تمر لحظات في الحياة تتطلب الانسحاب . ولا بد فيها من التخلي عن المواقع الأقل أهمية للحفاظ على المواقع الحيوية . وهكذا كنت أحسب أن موقعي الأخير هو جيبتي . أجل ، ففي تلك الأيام القليلة بدأت أشعر فجأة أنني أحب خياطتي ، وأنني أحبها حقاً .

وأعدتها يومئذ أمام إحدى الكنائس وليس في المنزل . وهل ما يزال منزلاً ؟ هل يمكن أيضاً أن تكون حجرة ذات جدران زجاجية منزلاً ؟ حجرة يرصدها المراقبون بمنظار ؟ حجرة يترتب عليكم أن تخفوا فيها المرأة التي تحبونها كالضلع المهرمة ؟

منزلنا إذن ، لم يعد منزلنا ، كنا نبدو دخلاء اندسوا في أرض غريبة ويتحسبون دوماً من التعرض لهجوم ، وكنا نفقد ريلطة جاشنا حين نبعث وقع خطي في العمر ، ونتوقع في كل لحظة أن يطرق شخص ما الباب ويطلب الحاج . كانت كلارا قد عادت إلى سيليا كوفيس ولم نعد نرغب نفاء بعضنا حتى لبضعة لحظات في منزلنا ذلك الذي أصبح غريباً عنا . لذلك طلبت من صديقي الرسام إمارتي محترفه لقضاء أمسية . ويومئذ كانت المرة الأولى التي يسلمني فيها المفتاح .

التقينا إذنا في الخفاء ، في حجرة فسيحة تحوي أريكة صغيرة وحيدة ولها نافذة كبيرة مائلة تتبدى منها براغ في أنوار المساء ، وامترتني فجأة مشاعري القديمة عن علوبة الحرية ، وسط مجموعة من اللوحات المسنودة على امتداد الجدران ، في هذه القدارة وهذه للفوضى اللامبالية لفنان . استويت على الأريكة وغرزت البدال في السدادة وفتحت زجاجة النبيذ . كنت أترثر بحرية ومرح ، واستمتع بأمسية جميلة وليلة لطيفة كنا على وشك أن نمضيها .

لكن القلق الذي بارحني للتو ، أرخى بكل وظائفه على كلارا .

ذكرت سابقاً بأنها جاءت لتقيم في منزلي بدون أدنى تردد وحتى ينتهي العفوية . لكننا الآن وقد ألفينا أنفسنا منذ بضع لحظات في محترف غريب ، باتت تشعر يتعكر مزاجها ، وإيما هو أكثر من تعكر المزاج . فقالت : « هذا يهينني » .

— سألتها : ما الذي يهينك ؟

— استعارتك للشقة .

— ولماذا يهينك ذلك مادمت انا استعرت الشقة ؟

— لان في هذا شيء مهين .

— لم يكن امامنا خيار آخر .

— قالت : اعلم ، لكنني اصبح شبیهة بماهرة في شقة مستعارة .

— يا إلهي ! لماذا تشبهين نفسك بماهرة لمجرد أننا في شقة مستعارة ؟ الماهرات يمارسن نشاطهن غالباً في منزل وليس في شقة مستعارة .

كان من العبث محاولة الدحض المنطقي للسد المنيع من الالامعقول الذي جلبت منه ، كما يقال ، الروح الانثوية . ومنذ البداية كان نقاشنا ينذر بالشؤم .

أخبرت كلارا بما قاله لي الأستاذ ، وسردت عليها كل ما جرى في لجنة الحي وحوادث اقتبلعها باننا سنتغلب في النهاية على كل العقبات .

ظلت كلارا صامته لبرهة ثم أكدت بانني اتحمل مسؤولية كل شيء . « على كل حال ، هل ستستطيع إنقاذي من ورشة الألبسة الجاهزة ؟ » .

أجبت بان عليها الصبر قليلاً في الوقت الحالي .

قالت كلارا : « لاحظ ، لم تكن سوى وعود وفي النهاية لن تفعل شيئاً . والان لن انتخلص منها حتى لو وافق شخص آخر على مساعدتي ، لان ملفي سيصبح مشيناً بسبب خطئك » .

اقسمت لكلارا بشرفي انه لن ينوبها اي اذى من مشاحناتي مع السيد زاتيروكي .

قالت كلارا : « رغم كل ما حدث لم يتسن لي أن أعرف لماذا ترفض كتابة تعليق القراءة . لو أنك كتبت ، لركنوا إلى الهدوء في الحال .

— قلت : في كل الأحوال فأت الأوان على ذلك يا كلارا . إذا كتبت تعليق القراءة الآن ، فسيديمون بأنني استنكر هذا العمل بدافع الثأر ، وسيصبحون أكثر هيجانا .

— ولماذا يجب أن تستنكر هذا العمل ؟ اعطِ رأياً موافقاً !

— لا يمكنني أن أفعل ذلك يا كلارا . تلك المقالة لا تطاق .

— وماذا بعد ذلك ؟ يلائمك تمثيل دور المدافعين عن الحقيقة ! الم يكن تزييفاً حين كتبت إلى ذلك الرجل بأنه ليس لأرائك أي وزن في مجلة الفكر التشكيلي ؟ الم تكذب حين قلت له بأنه حاول إغرائي ؟ الم تكذب حين تكلمت عن هيلين هلك ؟ إذا ، ما دمت كذبت كثيراً ، فماذا يمكن أن يحدث لك من الكذب مرة زيادة وإمطاء رأي موافق في مقالته ؟ هذه هي الوسيلة الوحيدة لإصلاح كل شيء .

— قلت : كما ترين يا كلارا ، أنت تحسبين أن اكذوبة تنوب عن أخرى : لكنك مخطئة . يمكنني تلفيق أي شيء ، وخداع الناس ، وتدبير كل أنواع الغش ، والقيام بكل أنواع المرحات ، فلا أشعر بنفسي كاذباً ، تلك الأكذوبات ، إن شئت أن تطلق عليها هذا الاسم ، هي أنا ، على علاتي ؛ فبتلك الأكذوبات لا أستر على شيء ، بتلك الأكذوبات أقول الحقيقة فعلاً . لكن هناك أمور لا يمكنني الكذب فيها . توجد أمور أعرفها في العمق ، وفهمت معناها ، وأحبها . لا أمزح بتلك الأمور . الكذب فيها سيحط من شأني ، ولا أحتمل ذلك ، فلا تطليه مني ، لأنني لن أقوم به . »

ولم نتفق .

لكنني كنت أحب كلارا حقاً وكنت عازماً على بذل ما بوسعي لكي لا تلومني على شيء . وفي اليوم التالي كتبت إلى السيدة زاتيروكي رسالة أخبرتها فيها بأنني سأنتظرها الساعة الثالثة من نهار الغد في مكتبي .

- ١٢ -

ملتزمة بروحها المنهجية ، طرقت السيدة زاتيروكي مكتبي في الموعد المحدد تماماً . فتحت لها الباب ودعوتها للدخول .

ها انذا أراها أخيراً . امرأة طويلة ، طويلة جداً ، ولها عينان زرقاوان كأمّدتان تجحظان من وجهها الناحل والمتطاوّل .

قلت لها « ارتاحي » فظلمت بحركات فظة معطفاً طويلاً لونه كستنائي غامق ، مطابق لقوامها ومفصل بطريقة غريبة ، كان يذكرني بصورة المعاطف العسكرية القديمة .

لم أكن أرغب البدء بالهجوم ؛ بل أن يبادر الخصم لكشف أوراقه . عندما جلست السيدة زاتيروكي ، حرّضتها على افتتاح السجل بوضع كلمات .

قالت بصوت خافت ودون أي اثر للعدوانية : « أنت تعلم لماذا كنت أبحث عنك . ما زال زوجي يكن لك الاحترام الفائق كإنسان وكعالم . كان كل شيء مرهوناً بتعليق قراءتك . واثت رفضت تحريره . لقد كرس زوجي ثلاث سنوات كاملة لهذا العمل . وعاش حياة متقشفة أكثر منك . كان معلماً وكان يجتاز ستين كيلو متراً يومياً لكي يعلم التلاميذ في الريف . وأنا التي أرغمتهم العام القالت على اخذ إجازة حتى يتمكن من تكريس نفسه للعمل حصراً .

— سألت : ألا يعمل السيد زاتيروكي ؟

- ٧ -

- وكيف تؤمنان سبل معيشتكما ؟

- إنني مضطرة حالياً لأحصل على ما يكفيني لوحدي . العلم هو شغفه . ليتك تعلم كم اجتهد . ليتك تعلم كم كتب . ظل يقول بأن على العالم الحقيقي كتابة ثلاثمائة صفحة لكي لا يحتفظ منها إلا بحوالي الثلاثين . ثم صادف تلك المرأة . صدقني ، فأنا أعرف بأنه لم يرتكب بالتأكيد شيئاً من قبيل ما اتهمته به تلك المرأة ، وأنها تثرثر بذلك أمامنا ! أعرف النساء ، لعلها تحبك ولعلك لم تكن تحبها . ربما كانت تريد إثارة غيرتك ، لكن يمكنك ان تصدقني ، ما كلن زوجي ليجرؤ على ذلك أبداً ! » .

بينما كنت أصغي إلى السيدة زاتروكي ، حدث لي فجأة أمر غريب : نسيت أنني بسبب هذه المرأة كنت على وشك أن أطرد من الكلية ، وأنه بسبب هذه المرأة اندس شبح بيني وبين كلارا ، وأنني بسببها قضيت إيلماً في الغضب والقلق . باتت كل علاقة بينها وبين الحادثة التي كنا نمثل فيها سوية دوراً مؤسفاً ما تبدو لي الآن مهمة وسقيمة وطائفة . ولأدركت فجأة بأنني لم أكن سوى وأهم حين تصورت بأننا نسرج حصان مغامراتنا بأنفسنا وأننا نوجه بأنفسنا سباقه ؛ وبأن تلك المغامرات ربما ليست مغامراتنا البتة ، بل إنها مفروضة علينا تقريباً من الخارج ، وبأنها لا تخصنا إطلاقاً ؛ وبأننا لسنا مسؤولين أبداً عن مجراهاا الغريب ؛ وبأننا تجرفنا ، وقد وُجِعت هي نفسها من مكان ما بقوى غامضة مجهولة .

من جهة أخرى ، حين كنت أنظر في عيني السيدة زاتروكي ، كنت أحسب أنه ليس بوسع عينيها إدراك معنى التصرفات ، وأنهما لا تنظران مطلقاً ؛ وأنهما لا تنفكان تمومان على سطح وجهها .

قلت بنبرة مواسية : لملك محقة يا سيدة زائتروكي . ربما كذبت صديقتي . لكنك تعلمين حال الرجل الفيور ؛ فصدقتها وانهارت اعصابي . هذه أمور تحدث لكل الناس .

— قالت السيدة زائتروكي متخلصة بوضوح من عبء ثقيل : أجل ، تلك المرأة . ما دمت تعرف ذلك فهذا جيد . كنا نخشى أن تصدق الوهم الذي يستولي عليه من الناحية الاخلاقية . فهذا كان يمكن احتماله أيضاً . لكن زوجي ينتظر بفارغ الصبر تعليق قراءتك . أكدوا له في هيئة تحرير تلك المجلة أن الأمر متوقف عليك وحدك . وزوجي واثق من أن مقالته لو نشرت ، لثم اخيراً قبوله في البحث العلمي . الآن وقد اتضح كل شيء ، هل ستحرر ذلك التعليق ؟ وهل بوسعك كتابته بسرعة ؟

جاءت اخيراً لحظة ثاري وتسكين غضبي ، لكنني لم اعد اشعر في تلك اللحظة بأي غضب ، وما قلته للسيدة زائتروكي ، قلته لانه لم يعد بوسعي التهرب : « سيدة زائتروكي ، توجد صعوبة بخصوص التعليق . سأشرح لك بصراحة كيف حصل كل هذا . إنني أرفض مواجهة أي شخص بأمور مزعجة . وهذه نقطة ضعفي . فعلت كل ما بوسعي لكي لا أقابل السيد زائتروكي وكنت اعتقد انه سيفهم لماذا أجتنبه . الحقيقة أن دراسته ضعيفة وليس لها أية قيمة علمية . هل تصدقيني ؟

— قالت السيدة زائتروكي : هذا الأمر يصعب علي تصديقه . لا ، لا اصدقك .

— أولا هذا العمل ليس مبتكراً على الإطلاق . هل تفهمين ؟ على العالم أن يبتكر شيئاً جديداً ؛ ولا يحق له أن ينسخ اشياء معروفة سابقاً ، اشياء كتبها آخرون .

— بالطبع لم ينسخ زوجي تلك المقالة .

— يا سيدة زاتيروكي ، طبعاً قرأتها ... » وهمت ان اتابع ،
لكن السيدة زاتيروكي قاطعتني .

« لا ، لم أقرأها » .

فوجدت : « في هذه الحالة ، اقربها .

— قلت السيدة زاتيروكي : نظري ضعيف . لم أقرأ سطرًا واحدًا
منذ خمس سنوات ، لكنني لست بحاجة للقراءة كي أعرف هل زوجي
شريف أم لا . هذه أمور يحسبها المرء ويستغني عن القراءة لأجلها ، أعرف
زوجي مثلما تعرف أم طفلها ، أعرف كل شيء عنه . وأعلم أن كل ما يقوم
به شريف دوماً » .

اضطرت لتحميل الأسوأ . قرأت على السيدة زاتيروكي بعض
المقاطع من مقالة زوجها والمقاطع المناظرة للمؤلفين المختلفين الذين اقتبس
منهم السيد زاتيروكي الأفكار ، وطبعاً لم يكن المقصود انتحال معتمد بل
الأصح طامة عمياء لمؤثرات تلهم السيد زاتيروكي الاحترام الصادق
والقرط . مع ذلك كان واضحاً أن أية مجلة علمية جادة لا يمكنها نشر
ذلك النص .

لا أدري بأية طريقة كانت السيدة زاتيروكي تهتم بشروحاتي ، وبأية
طريقة تتابعها وتفهمها . كانت جالسة باستكانة على كرسيها ، مدعنة
وخاضعة مثل جندي يعلم بأن عليه التثبت بموقعه . تكلمت ما ينوف
على النصف ساعة . ثم نهضت عن كرسيها ، وحدجتني بعيونها الكلعدة
ورجنتي بصوت بريء أن أسامحها . لكنني كنت أعلم أنها لم تفقد الثقة
بزوجها . كانت توجه اللوم إلى شخص ما ، ربما إلى نفسها ، لكي
لا تواجه حججي التي كانت تبدو لها غامضة وغير مفهومة . ارتدت
معطفها العسكري وأدركت أن تلك المرأة كانت مجنونة ، جندياً جسدًا
ودوحاً ، جندياً حزيناً ووفياً ، جندياً متعباً من غزوة طويلة ،
جندياً مهزوماً لكن دون عار .

١٣

قلت لكلا را في تافيرن دالماس بعد أن أخبرتها بحديثي مع السيدة زاتيروكي : « والآن ، لم يعد يوجد شيء يدموك للخوف » .

« أجابت كلارا بثقة فاجتني : لا أرى ما كان يدموني للخوف .

— كيف هذا ؟ فلولاك ، لما قابلت السيدة زاتيروكي أبداً !

— أحسنت صنعاً بمقابلتها لأنك سببت الكثير من الأذى لهؤلاء الناس . قال الدكتور كالوزيك بأن من العسير على رجل عاقل أن يفهم ذلك .

— متى رأيت كالوزيك ؟

— قالت كلارا : رأيتنه .

— وأخبرته بكل شيء ؟

— وبعد ؟ لعل ذلك سر ؟ الآن أعرف تماماً من أنت .

— آه ، من ؟

— هل تود أن أقول لك ذلك ؟

— إذا سمحت .

— إنك متعجرف تافه .

— هل قال لك كالوزيك هذا ؟

— لم كالوزيك ؟ هل تظن بأنني لا أستطيع اكتشاف ذلك لوحدي ؟
هل تظنني غير قادرة على إدراك لعبتك ؟ تؤثر خداع الناس . وعدت
السيد زاتيروكي بتعليق القراءة . .

— لم أعده أبداً بتعليق القراءة . . .

— وأنا ، وعدتني بوظيفة . استخدمتني ضد السيد زاتيروكي
وأستخدمت السيد زاتيروكي ضدي . لكن لعلمك ، ساحصل على تلك
الوظيفة رغم كل شيء .

— بفضل كاللوزيك ؟ « كنت أرغم نفسي على أن أبدو ساخراً .
» بالتأكيد ليس بفضلك ! فانت مغضوح في كل مكان ، ولا يمكنك
أن تعلم إلى أي مدى .

— وانت ، هل تعلمين إلى أي مدى ؟

— أجل ، لن يجدد عقد عملك وسيمتلك امتبار نفسك محفوظاً إن
قبلوك كمستخدم في مخزن ريفي . لكن عليك أن تفهم بأن كل ذلك حدث
بسبب خطئك . إذا أمكنني أن أقدم لك نصيحة من أجل المستقبل ،
الأجل بك أن تصبح صادقاً وأن لا تكذب ، لأنه ليس بوسع امرأة أن
تكن الاحترام لرجل يكذب » .

نهضت وصافحتني (واضح أنها المرة الأخيرة) ، ثم استدارت
وخرجت .

كنت بحاجة لبرهة كي أفهم أن حكايتي (رغم الصمت الجليدي
الذي كان يحديق بي) ليست من النوع التراجيدي ، بل الأصح الملهلي .

وهذا ما جعلني أشعر بنوع من السلوى .



تفاحة الشهوة الأزلية الذهبية

مارتانا :

مارتانا قادر على أشياء لا أقدر عليها . انه يتعرض لاية امرأة في أي مكان . ولا يد لي من الاعتراف بأنني استفدت كثيراً من موهبته منذ أن تعرفت عليه (وقد حصل ذلك منذ زمن طويل) ، لأنني أهوى النساء بقدر ما يهوهن لكنني لا أملك جرأته المتهورة . وبالمقابل ، ارتكب مارتانا خطأ بتحويل التعرض إلى ممارسة براعة أصبحت غاية في حد ذاتها . بحيث صار يشبه نفسه غالباً ، وإحساس بشيء من المراهرة يعتربه ، بمهالهم شهم يرسل الكرات الاكيدة لزميله الذي يحرز أهدافاً سهلة ويحصل الجهد بمجهود متواضع .

كنت أنتظره عصر يوم الاثنين بعد خروجي من عملي في مقهى ساحة ملان - فلاميسلا ، وقد استغرقت في قراءة كتاب الماني سميكت يتناول الثقافة الأوروبية(*) القديمة . احتاجت مكتبة الجامعة إلى عدة أشهر لكي تزودني بهذا المؤلف الذي استعارته لأجلي من ألمانيا ، وبما أنني كنت قد تلقينته للتو يومئذ ، فقد حملته معي بحرص بالغ وكننت مسروراً في قراءة نفسي لأن مارتانا تأخر ، مما أتاح لي تصفح الكتاب المشوق على طولة المقهى .

لا يمكنني التفكير في تلك الثقافات القديمة الغابرة دون الإحساس بنوع من الحنين . إحساس بالحنين وكذلك بالحسد عند التفكير بالانسياب العذب لتاريخ ذلك الزمن . فالثقافة المصرية القديمة تشغل عدة آلاف من السنين ، واستمرت العصور اليونانية القديمة ما يقارب

(*) الأوروبي : من أوروبا التي كانت تقع قديماً في إيطاليا .

الألف عام . ومن هذه الناحية ، تشبه الحياة الإنسانية التاريخ : تتوارى في البداية بهدوء ورتيب ، ثم تتسارع شيئاً فشيئاً وأكثر فأكثر . لقد تجاوز ماروتان الأربعين منذ شهرين .

المغامرة تبدأ :

هو الذي قطع تلملي . ظهر فجأة على الباب المزجج لشرب الجمعة ، وتقدم نحوي وهو يوجه تكشيرات وإيماءات معبرة إلى فتاة شلبة جالسة إلى جانب طاولة وأمامها فنجان قهوة . جلس بقربي دون أن تبارحها عيناه وسألني : « ما قولك فيها ؟ » .

شعرت بالخجل . في الحقيقة ، كنت مستغرماً بعمق في كتابي بحيث لم يتسن لي ملاحظة الفتاة الشابة ، وكان لا بد من الاعتراف بأنها جميلة . في اللحظة نفسها ، عدلت جلستها ونادت التادل ذي ربطة العنق السوداء : كلت تريد دفع الحساب .

أعزني ماروتان : « ادفع انت أيضاً ! » .

كنا نعتقد أننا سنضطر للركض خلفها في الشارع ، لكن الحظ واتانا بتوقفها أيضاً في حجرة الملابس . كلت قد أودعت فيها حقيبة ، فذهبت المستخدمة للبحث في مكان ما قبل أن تضعها أمامها على المنضدة . ثم دفعت الفتاة بضع قطع نقدية من فئة العشر سنتيمات إلى المستخدمة وحينئذ ، انتزع ماروتان كتابي الألماني السميك من يدي .

قال بمنتهى العفوية : « لنضعه هنا ! والودع الكتاب بعناية في حقيبة الأنسة التي بدت مندهشة لكنها لا تدري ماذا تقول .

— ليس من السهل الاحتفاظ بهذا الشيء في اليد » قال ماروتان : وعاتبني على سوء سلوكي ، لأن الفتاة كانت تستعد لحمل الحقيبة بنفسها .

كانت ممرضة في مشفى ريفي . وقد مرت مروراً عابراً في براغ
وكان يترتب عليها الإسراع للمستقل حافلتها . حسبنا أننا رافقناها إلى
موقف الترام حتى نعلم المطلوب بشأنها ونتفق على المجيء إلى بـ...
السبت التالي ، لكي نلتقي تلك الأنسلة الفاتنة التي لا بد أن لديها زميلة
جميلة بالتأكيد ، وهو ما لم يفقل مارتان التنويه عنه بفصاحة .

كان الترام يقترب ببطء . ناولت الحقيبة إلى الفتاة التي تظاهرت
بسحب الكتاب منها ، لكن مارتان منعها من ذلك بحركة نبيلة ، فلتعده لنا
يوم السبت التالي وتتصفحه من الآن حتى ذلك الحين ... كانت تضحك
ضحكة مرتبكة والترام يذهب بها ونحن نلوح لها .

لم يكن لي حيلة في الأمر . فالكتاب الذي انتظرته طويلاً أصبح فجأة
بعيداً على نحو خطر ، وحين تأملت الأمور برؤية ، وجدت ذلك مزججاً ،
لكنني لا أدري أية حماقة كانت تحملني بخفة على جناحيها البسوطتين .
أخذ مارتان ، دون أن يضيع دقيقة واحدة ، يفتش عن أعمار لزوجته من
أجل بعد ظهر يوم السبت والليل الممتد من السبت إلى الأحد (لأن الأمر
على هذا المتوال : مارتان متزوج ، لديه زوجة شابة والأسوأ من ذلك
أنه يحبها ، والأسوأ أيضاً أنها يخاف منها ، والأسوأ أكثر أيضاً أنه يخاف
عليها) .

استطلاع موفق :

استعرت إذا سيارة فيات جميلة من أجل حملتنا ، وجئت يوم
السبت في الساعة الثانية لكي آخذ مارتان من أمام منزله ، كان ينتظرني
فانطلقنا في الحال . كان شهر تموز ، والطقس في غاية الحرارة .

كانا نود الوصول إلى بـ... في أسرع وقت ممكن ، لكننا حين لحنا
في القرى شابتين بلباس السباحة وشعرهما مبلل ، أوقفت السيارة .
نم تكن البركة بعيدة خلف المنازل . كنت بحاجة للتبريد . وقد وافق
مارتان .

ارتدينا سراويل السباحة وغطسنا . وصلت بسرعة إلى الضفة المقابلة ، أما مارتان فاكتمى بالتبلل والمخممة ثم خرج . حين عدت من جديد إلى الضفة بعد أن اجتزت البركة في الاتجاه المعاكس ، القيته مستغرقاً في تأمل عميق . كانت مجموعة من الأطفال تتشارك بصخب على الجرف ، وصبية القرية يلعبون الكرة أبعد منهم بقليل . أما مارتان فيحافظ على عينيه مسمرتين على جسد فتاة شابة واقفة على بعد حوالي خمسة عشر متراً منا وتولي ظهرها إلينا . كانت تتمتع بماء البركة في سكون شبه تام .

« قال مارتان : انظر .

— انني أنظر .

— وما قولك فيها ؟

— ماذا تريدني أن أقول فيها ؟

— ألا تعرف ما يجب أن تقوله فيها ؟

— لا بد من التريث حتى تلتفت .

— لسنا بحاجة للتريث حتى تلتفت . ما تبديه من هذه الجهة يكفيني تماماً .

— موافق ! لكن ليس لدينا وقت .

— رد مارتان بسرعة : الاستطلاع ، الاستطلاع ! « وتوجه نحو ضي يرتدي سراويل رياضية . « من فضلك أيتها الغلام ، ألا تعرف ماذا تسمى تلك الفتاة ؟ » وأشار إلى الفتاة التي ما تزال محافظة على وضعيتها نفسها ، مستسلمة لبلادة غريبة .

« تلك ؟

— أجل ، تلك .

— قال المصبي : ليست من هنا » .

عندئذ خاطب مارتان صبية في الثانية عشر من عمرها كانت
تشمس بقرنا .

— « يا صغيرتي ، ألا تعرفين من هي تلك الفتاة ، تلك الواقعة على
طرف الماء ؟ » .

نهضت الصغيرة بانقياد : « تلك ، هناك ؟

— نعم

— إنها ماري .

— ماري ماذا ؟

— ماري بانيك ، من يوزدراني ... » .

كانت الفتاة ما تزال واقفة على طرف البركة وظهرها متجه نحونا .
ثم بدأت تنحني لالتقاط قبعتها ، وعندما انتصبت ووضعتها على شعره
كان مارتان قد أصبح يجالبي : « إنها تدعى ماري بانيك ، من يوزدراني
يمكننا الإنطلاق » .

كان في منتهى الهدوء والوداعة ولم يكن يفكر ظاهريا إلا بمواصلة
الرحلة .

شيء من النظرية :

ذلك ما يسميه مارتان الاستطلاع . استخلص من تجربته الكبيرة
أن الأصعب ، بالنسبة لأي شخص لديه في هذا الميدان طلبات عديدة

كثيرة ، ليس إغراء فتاة ، بل التعرف على عدد كافٍ من الفتيات اللواتي لم يتعرضن للإغراء بعد .

يزعم إذاً بأنه يترتب علينا دائماً ، في كل مكان وفي كل ظرف ، البدء باستطلاع منظم للنساء ، أو بعبارة أخرى ، أن ندون في مفكرتنا أو في ذكرتنا أسماء النساء اللواتي أعجبنا واللواتي قد نستطيع يوماً التعرف لهن .

التعرض هو درجة أعلى من النشاط ويعني أن يتصل المرء مع هذه أو تلك ، ويتعرف عليها ويمهد للوصول إليها . أولئك الذين يؤثرون الالتفات إلى الماضي بتجسس ، يتمسكون بعدد النساء المغزوات ، أما أولئك الذين يتطلعون إلى الأمام ، نحو المستقبل ، فعليهم في البداية تهيئة عدد كافٍ من النساء المستطلعات والمتعرض لهن .

لم يعد يوجد بعد التعرض إلا درجة واحدة وأخيرة من النشاط ، ويهمني أن أشير إرضاءً لمارتان إلى أن أولئك الذين لا يطمحون إلا إلى تلك الدرجة النهائية هم الرجال البأسون والدونيون الذين يشبهون لاعبي كرة القدم الريفيين الذين نشاهدهم ينقضون برؤوس مطرقة نحو مرمى الخصم ، متناسين أنه لا يكفي لتسجيل هدف (وعدة أهداف) الرغبة الجامحة بقذف الكرة ، بل لابد في البداية من اللعب بإتقان وتنظيم على أرض اللعب .

« سألت مارتان حين كنا نتابع طريقنا من جديد : هل تعتقد أنك ستحظى يوماً بفرصة الذهاب لرؤيتها في بوزدراني ؟
— أجب : لا يمكن التنبؤ بذلك أبداً .

— علقت بدوري : على كل حال ، فاتحة حسنة للنهار بالنسبة لنا»
اللعبة والفروية .

وصلنا الى مشفى ب . . . بمزاج مبتهج . كانت الساعة الثالثة والنصف تقريباً . هاتفنا معرضتنا من حجرة الوباب . نزلت بعد قليل بقبعة المعرضة والرداء الأبيض واكتشفت انها احمرت خجلاً ، وهو ما بدا لي بشيراً سلباً .

بدأ مارتان الكلام بسرعة واخبرتنا الفتاة بان نوبتها تنتهي في الساعة السابعة . رجتنا انتظارها في تلك الساعة امام المشفى .

« سأل مارتان : هل كلمت زميلتك ؟ فأومأت الفتاة إيجاباً .

— أجل . . ستكون التتبع .

— قال مارتان : ممتاز ، لكن لا يمكننا ان نقاجيء صديقي بالامر الواقع .

— قالت الفتاة : حسناً ، يمكن الذهاب لرؤيتها . إنها تعمل في قسم الجراحة » .

اجتئنا بشمول فناء المشفى وسألت بخجل : « أما يزال كتابي معك؟ »

روت المعرضة إيجاباً بإيماءة من رأسها : ما تزال تحتفظ به ، وهنا في المشفى ، شعرت بالترياح عب « ثقل من كاهلي والحمت عليها كي تذهب أولاً لإحضار الكتاب .

وطبعاً رأى مارتان انه لا يليق أن أفضل بشكل علني كتاباً على المرأة التي أوشكت على التعرف إليها ، ولكن ذلك كان رغباً عتي . لا بد لي من الاعتراف بانني تأملت كثيراً خلال الأيام التي وجد فيها كتاب الثقافة الاقتصادية بعيداً عن متناول يدي . وقد احتجت إلى جهد جبار من الإرادة لكي أحتمل ذلك دون تلامر ، لأنني لم أكن أريد في حال من الأحوال إفساد اللعبة . هذه القيمة التي تعلمت احترامها منذ فترة صباي ويمكنني أن أخضع لها في كل مسألتي ورغباتي الشخصية .

بينما كنت أستعيد كتلي بشفف ، كان ملوتان يتابع جداله مع
المرضة وقد أوغل يمينه للرجلان الفتاة وبعده باستعارة شاليه زميل لها
قرب بركة أوتي لقضاء الامسية . كنا نحن الثلاثة في غاية الرضى
فتوجهنا نحو البناء الصغير الأخضر الذي يحوي قسم الجراحة .

في تلك اللحظة ، كانت ممرضة تجتاز القناء بصحة طبيب في
الاتجاه العاكس . كان ذلك الطبيب طويلاً ناعلاً ومثيراً للسخرية
بأذنيه المشنفتين ، وهو ما كان يسحرني . لكنني ممرضتنا بعرفتها
فاخذت اضحك . عندما ابتعدا ، التفت ملوتان نحوي : « إنك محظوظ
بها يا عزيزي . فأنت لا تستحق فتاة بمثل هذا البهاء ! »

لم اتجرأ على الاجابة بالنفي لم انظر إلا إلى الطويل الناحل ولذلك
أبدت رأياً متطعاً . ومن جهة أخرى ، لم يكن هذا بتاتا علامة رياء
من جلبي . فانا اثق بلوق ملوتان أكثر من ذوقي الشخصي ، لانني
اعلم ان ذوقه مدعوم بالاهتمام أكثر بكثير من اهتمامي . أحب في كل
امر النظام والموضوعية ، بما في ذلك أمور الحب ، وأقدر الخير
أكثر من الهلوي .

لعل البعض سيتصور أنه من الرياء ، من جانب الرجل المتطاع الذي
أكونه والذي يروي بدقة إحدى مغامراته (غير الاستثنائية حتماً) ، ان
ينعت نفسه بالهلوي . ومع ذلك : انا ها هو . ويمكن القول انني امثل
ما يعيشه ملوتان ، أخال أحيانا أن كل حياتي المتعددة الزوجات ليست
إلا تقليداً للرجال الآخرين ؛ ولا أنكر شعوري ببعض المتعة في هذا التقليد .
لكن ليس بوسعي أن أتمالك نفسي عن التفكير بأنه يوجد في هذه المتعة
شيء ما قلدي تماماً وأعطائي ويمكن العود عنه ، يسمي زيارة معرض
اللوحات أو اكتشاف مشاهد طبيعية خارقة ولا يخضع إطلاقاً لتلك
الضرورة الحتمية التي أتكهن بها وراء الحياة المجنة لملوتان . ما أحترمه
في ملوتان هو تلك الضرورة الحتمية . فحين يتفوه بحكم على امرأة ،
أحسب أن الطبيعة مشخصة والضرورة نفسها تنطلق بغمه .

شعاع الحرق :

حين خرجنا من المشفى ، نهني مرتان بشدة إلى أن الأمور تسير على ما يرام بالنسبة لنا . ثم أضاف : « لا بد من العمل بسرعة هذا المساء . أريد العودة في الساعة التاسعة » .

أذهلني ذلك : « في التاسعة ؟ لكن هذا يعني أن علينا المغادرة من هنا في الساعة الثامنة ! كنا في غنى عن المجيء في مثل هذه الحالة ! كنت أظن أن الليل بطوله ما زال آمنا !

— ولماذا تريد أن نضيع وقتنا ؟

— لا معنى لجيئنا إلى هنا من أجل ساعة : ماذا تريد أن تفعل من الساعة السابعة حتى الثامنة ؟

— كل شيء . كما سمعت ، وجدت شاليه . في هذه الحالة ، ستمسر الأمور بيسر . كل شيء متوقف عليك ، سيتربط عليك أن تبدي مقدارا كافيا من التصميم .

— وهل تسمح باختباري للذهاب عليك العودة في الساعة التاسعة ؟

— « وعدت » جورجيت بذلك . نحن نلعب الورق مساء كل سبت قبل خلودنا إلى النوم .

— تلعبت : يا إلهي !

— ما زالت جورجيت متكدرة من عملها في الأمس وتريدني أن أحرمها من هذه الفرجة التواضعة يوم السبت ؟ أنت تعلم بأنها أفضل امرأة تعرفت عليها في حياتي » .

واستدرك : « بالإضافة لذلك ، سيسرك أن يظل الليل بطوله أمامك في برناغ » .

ادركت ان من اللعب النقاش . لا يمكن لشيء ان يخفف من المخاوف التي يشعر بها مارتان في سبيل تهدئة خاطر زوجته ، ولا يمكن لشيء ان يزعم ثقته بالإمكانات اللانهائية الماحنة في كل ساعة وكل دقيقة .

« قال لي مارتان : تعال . ما يزال أماننا ثلاث ساعات من الآن حتى الساعة السابعة . لن ننتعل ! »

الحديقة :

دلفنا إلى ممر حديقة عامة واسع يستخدمها سكان المدينة للتنزه . تفحصنا العديد من أزواج الفتيات اللواتي يعبرن بقرينا أو يجلسن على المقاعد ، لكننا كنا مستأئين من صفاتهم .

تمرض مارتان رغم ذلك لاثنتين منهن وافتتح معهن حديثا ، وواعدهن ، لكنني كنت أعلم أن ذلك ليس جديا . فهذا ما يسميه التعرض التدريبي ، وهو رياضة يكرس نفسه لها مخافة أن يفقد مهارته .

خرجنا من الحديقة العامة متزعجين وتبعنا سيرنا في الشوارع المستغرقة في سام وفراغ المدينة الريفية الصغيرة .

« قلت لمارتان : تعال نشرب شيئا . إنني عطشان » .

عثرنا على بناء تعلوه لوحة منقوشة « مقهى » . دخلناه ؛ لكنه لم يكن إلا مقهى خدمة ذاتية ، عبارة عن صالة مبلطة ، باردة وقلية الحفافة؛ فتوجهنا نحو منضدة البائعة لكي نشترى من سيدة متجهمة شربا ، وضعتاه بعد ذلك على طاولة ملطخة بالصلصة ، كان لا بد لها أن تحثنا على الخروج بأقصى سرعة .

قال مارتان : لا تمر أهتماما لذلك ، فللتجارة وظيفة إيجابية في عالمنا . لا أحد يريد التريث مطلقا ، فحالا يلقي نفسه في مكان ما .

يتعجل الخروج منه ، وهذا ما يهيب الحياة إيقاعاً مستحجباً . لكننا لن
ننساق لذلك . يمكننا أن نقص على بعضنا أموراً كثيرة ، محميين بواسطة
القلادة الهادئة لهذه الخمارة « شرب الليمون وسالتي : « هل تعرضت
أنفاً لطالبك في الطب ؟

— قلت : أجل بالتأكيد .

— وكيف هي ؟ صفها لي ؟

وصفت لـ طالبية الطب ، دون أن يصعب عليّ ذلك ، مع أنه لا توجد
طالبة طب . أجل ، مع أن هذا يعطي عني صورة سلبية بلون شك ،
لكن الأمر حصل هكذا : اختلطت .

يمكنكم أن تثقوا بكلامي : لم أنصرف بدوافع شريرة لكي اتباهى أمام
مارتان أو أخدعه . اختلطت طالبة الطب تلك لسبب بسيط هو أنني
لم أمد استطيع مقاومة إلحاح مارتان .

مارتان شخص لجوج جداً فيما يخص نشاطي . فهو واثق من أنني
أقابل كل يوم نساء جديدات . يراوني بخلاف ما أنا عليه ولو أنني قلت
له بصراحة أنني لم أضع أو حتى المس امرأة جديدة طوال الأسبوع ،
لاعتبرني منافقاً .

إذا كنت قد ألفت نفسي قبل بضعة أيام مكرهاً على أن أقص عليه
بأنني استطلعت طالبة طب . بدا راضياً وشجعني على المضي للتعرض
لها . تأكد يومئذ من تقلمي .

« وهي من صنف من ؟ إنها من صنف ... » .

أغمض عيني بحثاً في الغبش عن نقطة مقارنة ؛ ثم تذكر صديقة
مشتركة : « ... إنها من صنف سيلفي ؟

— قلت : إنها أفضل بكثير .

دهش مارتان : « انت تمزح ... »

— إنها من صنف زوجتك جورجيت » .

المعيار الأول بالنسبة لمارتان هو زوجته . كان مارتان في غاية الرضى
من تقريره واسترسل في حلم يقظة .

تعريض موفق :

ثم دخلت فتاة ترتدي بنظلاً مخملياً إلى الصالة . تقدمت نحو
منضدة البائنة وانتظرت شرايها . ثم توقفت عند طاولاة مجاورة لطاولتنا ،
وشربت دون أن تجلس .

التفت مارتان نحوها وقال : « يا آنسة ، نحن لسنا من هنا ونود ان
نسالك عن أمر » .

ابتسمت الفتاة . كانت في غاية الجمال .

« إننا نخشع ولا ندرى ماذا نفعل ... »

— اذهبوا للاستحمام !

— وهو كذلك . لكننا لا نعرف مكان الحمام في هذه المدينة .

— لا يوجد حمام .

— كيف هذا ؟

— يوجد حوض سباحة لكنه فارغ منذ شهر .

— والنهر ؟

— إنه ينظف الآن .

— إذا ، أين يمكن الاستحمام ؟

— لا يوجد إلا بركة أوتي ، لكنها تبعد حوالي ٧ كيلو مترات .

— الأهمية لذلك ، معنا سيارة ويكفي أن نقودينا .

— قلت : ستكونين ملاحتنا .

— قال مارتان : أو الأصح ، دليلتنا .

— قلت : نجمتنا » .

واقفت الفتاة في النهاية على مرافقتنا بعد تردد ؛ لكن كان ما يزال أمامها جولة ، وكانت مضطرة لإحضار مايو السباحة ؛ لذلك كنا سنلتقيها في المكان نفسه بعد ساعة بالضبط .

كنا مسرورين . أخذنا ننظر إليها تبعد ، وهي تهز وديكها بلطف وتؤرجح قرطبيها السوداوين .

« قال مارتان : كما ترى ، الحياة قصيرة ويجب الاستفادة من كل دقيقة » .

منبع الصداقة :

عدنا إلى الحديقة العامة لكي نعاين أزواج الفتيات الجالسات على المقاعد ، إلا أنه حين تكون إحداها جميلة ، وهو ما كان يصادف أحيانا ، لا تكون جارتها كذلك مطلقا .

« قلت لمارتان : إنه قانون الطبيعة الغريب . المرأة القبيحة تأمل بالاستفادة من نضارة صديقتها الرائعة الجمال ، وهذه تأمل أن تتوهج ببريق خلفيته القبح ؛ ينجم عن ذلك بالنسبة لنا أن صداقتنا خضعت

لاختبارات متتالية . وإلغني فخور جداً لأننا لم نترك مجالا للصدفة أو المنافسة للتحكم فينا . ما يزال الاختيار فيما بيننا يتم بلباقة . كل واحد يقترح على الآخر الفتاة الأجمل ، ونشبه في هذا سيدين محافظين لا يمكنهما الدخول إلى حجرة لأنه لا يسعهما القبول بأن يسبق أحدهما الآخر .

— قال مارتان بتأثر : أجل . إنك صديق حقيقي . تعال لنجلس قليلاً . اشعر بالمرح في ساقبي . »

ودهبنا للجوس ، فاسترخينا باستمتاع إلى الوراء مع الشمس الساطعة ، وتركنا العالم يتابع جريانه حولنا لبضعة دقائق دون أن نهتم به .

الصبيبة ذات الثوب الأبيض :

انتصب مارتان فجأة (وقد دفعه إلى ذلك بالتأكيد احساس غامض) ونظره محقق في ممر منزول من المنتزه حيث تتقدم فتاة مرتدية ثوباً أبيض . وحتى عن بعد ، حين لم تكن أبعاد جسدها وملامح وجهها تميز بعد بوضوح ، كان يكشف فيها سحراً خالصاً ، عصياً على الفهم ؛ نوعاً من الصفاء أو الرقة .

حين مرت أمامنا ، اكتشفنا أنها صبيبة . لم تكن طفلة ولا شابة ، وذلك ما أثارنا إلى أبعد حد في الحال . نهض مارتان يوثبة : « يا آنسة ، أنا المخرج فورمان . وكما تعرفين ، مخرج سينمائي » .

مد يده إلى الصبيبة فصافحتها وعلائم الدهول بادية على عينيها .

التفت مارتان نحوي وقال : « أقدم لك مصوري .

— اسمي أندريسيك » قلت وأنا أصافحها بدوري .

أنحنت احتراماً .

« نحن محتاران يا آنسة . ابحث هنا عن مشاهد خارجية من أجل فيلمي القادم . كان يجب على معلوني الذي يعرف المنطقة جيداً أن ينتظرنا هنا ، لكنه لم يأت . نتسائل من أين نبدا زيارتنا للمدينة وضواحيها . ثم تابع مارتان مازحاً : يدرس مصوري المشكلة في هذا الكتاب الألماني السميك ، لكنه لن يجد فيه شيئاً مع الأسف » .

أزعجني هذا التلميح إلى الكتاب الذي حرمت منه طيلة الأسبوع . فانتقلت إلى الهجوم على مخرجي « من المؤسف أنك لم تهتم كثيراً بهذا الكتاب . فلو كرست وقتك بشكل جدي للأعداد ولم تترك كل العمل التوثيقي لمصورك ، فربما كانت أفلامك أقل سطحية ولاحتوت على عدد أقل من الأخطاء » ثم قلعت اعتذاراتي إلى الصبية : « الملعونة يا آنسة . لم تكن نود إزعاجك بجداولنا المهنية ؛ في الحقيقة ، نحن نعد فيلماً تاريخياً عن الثقافة الأوروبية في بوهيميا » .

— قالت وهي تنحني : أجل

— إنه كتاب مشوق ، انظري !

ناولت الكتاب إلى الصبية التي اخذته برهبة دينية تقريباً وراحت تصفحه بشرود تلبية للدعوتي كما بدا .

« قلت أيضاً : اظن أن قصر بشاسيك قريب من هنا ، كان مركز الأوروبيين التشيكيين ، لكن كيف نذهب إليه ؟

— قالت الصبية : إنه قريب جداً . ولانتهشت فجأة لأن معرفتها بطريق بشاسيك منحتها أخيراً موقعا مهماً في هذا الحوار الغامض قليلا .

— سأل مارتان متصنعاً الازدواج الكبير : كيف ؟ انت تعرفين ذلك القصر ؟

— قالت : بالتأكيد . إنه على بعد سابعة من هنا .

فج الإيمان الأعمى :

مضت عشر دقائق ، ثم ربع ساعة ولم تعد الصبية .

اخذ مارتان يطمئنني : « لا تقلق ، إنني متأكد من انها ستاتي . كان مشهدنا معقولا جدا وكلمات الصغيرة تطير فرحاً » .

كنت موافقاً على هذا الرأي ، بحيث لبثنا ننتظر ، وكل دقيقة تؤجج رغبتنا بتلك المراهقة التي ما زالت طفلة . وعلى هذا النوال ، لم نلاحظ موعدها مع الفتاة ذات البنطلان المخملي . ولم يكن يخطر ببالنا حتى النهوض لأن صورة الفتاة ذات الثوب الأبيض شغفتنا .

وكان الزمن يمضي .

« قلت أخيراً : اسمع يا مارتان ، اعتقد أنها لن تأتي .

— كيف تفسر ذلك ؟ لقد آمنت بنا كما تؤمن بالله . . .

— أجل ، وهكذا بالضبط سبب بلأنا . لقد آمنت بنا أكثر مما ينبغي .

— وإذا ؟ لعلك كنت تريدها أن لا تؤمن بنا ؟

— لكان ذلك أفضل بالتأكيد . فالإيمان بالالتهب هو أسوأ الخلفاء .
« افتتحت نقاشاً ، وقد انسقت إلى هذه الفكرة : « عندما يعتنق الإنسان امرأ بحرفيته ، فإن الإيمان يدفع ذلك الأمر إلى المحال . والمؤيدون المخلصون لسياسة ما لا يأخذون أبداً على محمل الجد سفسطات تلك السياسة ، بل الغايات العملية التي تتخفى وراء تلك السفسطات فقط . لأن اليافطات السياسية والسفسطات لم تمتد لكي يؤمنوا بها ؛ لكنها تستخدم كحجة متفق عليها ضمناً ؛ أما الساذجون الذين يأخذونها على

قال مارتان : مشياً ؟

— قالت : أجل ، مشياً .

— قلت : لكن معنا سيارة .

— قال مارتان : كوني ملاحظتنا « لكنني فضلت عدم متابعة طقسنا التقليدي في التلاعب بالألفاظ ، لأن لدي تشخيصاً نفسياً ! » صبح مما عند مارتان ، فشعرت أن المرحات السهلة قد تتهددنا بالأذى وأن الجدية التامة قد تكون أفضل أوراقنا الراححة .

« قلت : لا نريد إضاعة وقتك يا آنسة ، لكنك إذا تكرمت بتكريس ساعة أو ساعتين لنا وإرشادنا إلى الأماكن التي نرغب برؤيتها في المنطقة ، فسنكون لك من الشاكرين .

— قالت الصبية منحنية من جديد : طبعاً . أود ذلك ، لكن ... » في تلك اللحظة فقط ، تبينا أنها كانت تمسك في يدها كيس مشتريات يحتوي خستين ... « يجب أن أحمل السلطة إلى أمي ، لكن المكان قريب جداً من هنا وسأعود في الحال .

— قلت : بالتأكيد ، يجب أن تحملي السلطة إلى أمك . إننا ننتظرك هنا .

قالت : أجل ، يلزمي على الأكثر عشر دقائق » .

انحنيت من جديد وأبتعدت بسرعة .

« قال مارتان : تباً لك !

— إنها من الطراز الرفيع ، أليس كذلك ؟

— أوافقك . إنني مستعد للتضحية بالمرضتين في سبيلها .

محمل الجد فيسكتشفون فيها عاجلاً أو آجلاً التناقضات ، وسيدؤون في التمرد وسينتهون على نحو مخز إلى ارتداء زي الهراطقة والمرتدين . كلا ، لا يحمل الايمان الأعمى أية فائدة ؛ ليس فقط في المذاهب الدينية والسياسية ؛ بل أيضاً في مذهبنا الذي استخلفناه لاستمالة تلك الصبية .

— قال مارتان : لم أعد أفهمك .

— مع ان كلامي واضح جداً : لم تكن في نظر تلك الفتاة إلا سيدين جديين ، فارادت ان تنصرف بلباقة ، مثل طفلة مهذبة تتخطى عن مقعدها في الترام للمستين .

— إذا كان الأمر كذلك ، لماذا لم تواصل بلباقتها حتى النهاية ؟

— بالضبط لأنها آمنت بنا كثيراً . حملت الخضار إلى أمها وقصت عليها ما جرى بحماسة : الفيلم التاريخي ، الأتروزيون في بوهيميا ... والملا ... »

قلطعني مارتان : « أجل ... أعرف البقية » ثم نهض .

الخيانة :

أخذت الشمس تنحدر ببطء على اسطحة المدينة؛ كانت الريح تهب برفق ونحن حزينان . ورغم ذلك ذهبت إلى مقهى الخدمة اللاتية لثرى فيما إذا كانت الفتاة ذات البنطال المخمل ما تزال تنتظرنا فيه . وطبعاً لم تكن هناك . كانت الساعة السادسة والنصف . نزلنا ثانية إلى السيارة . أصبحنا نشعر فجأة بأننا رجلان منفيان عن مدينة غريبة وإفراحها ولم يبق أملنا سوى البحث عن ملجأ في سيارتنا التي تبدو متمتعة بامتياز الحصانة هنا .

هتف مارتان عندما صرنا في السيارة : « حسناً ! لا تتخذ سيماء
الجداد ! الأهم أماننا » .

كنت أوعب بإجابته أننا لم نخصص إلا ساعة من أجل الأهم :
بسبب زوجته جورجيت ولعبة الورق ، لكنني فضلت السكوت .

« أضاف مارتان : من جهة أخرى ، كان النهار حافلاً . استطلاع
الصغيرة من بوزدواني ، التعرض للفتاة ذات البنطل المخملي ، كل شيء
في المدينة جلعز بالنسبة لنا ، ولم يعد أماننا إلا العودة مرة أخرى » .

لم أجب بشيء . أجل . كان الاستطلاع والتعرض ناجحين على نحو
باهر . كان كل ذلك يسير على ما يرام . لكنني فكرت فجأة أن مارتان
لم يتوصل إلى شيء آخر منذ عام ، باستثناء هذه الاستطلاعات
والتعرضات .

رحت انظر إليه . كانت عيناه تشعان كالعتاد بيريقيهما المتلف
دوماً ، فشعرت في تلك اللحظة إلى أي مدى كان مارتان عزيزاً علي ومقدار
حبي للرأية التي سار خلفها طيلة حياته : رأية الملاحقة الدائمة للنساء .

كلن الزمن يمضي فقال مارتان : « الساعة الساعة » .

أوقفنا السيارة على بعد عشرة أمتار تقريباً من سور المشفى لكي
يتسنى لي مراقبة المدخل في المראה . كنت ما أزال أفكر بتلك الرأية .
شعرت إن الغاية من تلك الملاحقة للنساء لا تستهدف مع مرور السنين
النساء بقدر ما تستهدف الملاحقة في حد ذاتها . بشرط أن يكون المقصود
ملاحقة عابثة سلفاً ، يمكن ملاحقة عدد غير محدود من النساء كل يوم
وجعل الملاحقة على هذا النحو ملاحقة مطلقة . أجل ، كان مارتان يصير
في موقف الملاحقة المطلقة .

ما زلنا ننتظر منذ خمس دقائق ولم تأت الفتاتان .

لم يكن ذلك يقلقني البتة . ليس لمجيئهما او عدم مجيئهما أهمية . لأنه حتى لو جاءتا ، فهل بوسعنا في ساعة واحدة أن نسطحيهما إلى شاليه بعيدة ، ونكسب ثقتيهما ، ونضاجعهما لكي نستأنن بأدب في الساعة الثامنة وننطلق ؟ كلا ، فمنذ اللحظة التي قرر فيها مارتان أن كل شيء يجب أن ينتهي في الساعة الثامنة ، حول هذه المفامرة (كما في مرات كثيرة !) إلى لعبة وهمية .

مازلنا ننتظر منذ عشر دقائق . لم يظهر أحد على مدخل المشفى .

بدأ مارتان يشاظ وكان يصيح تقريباً : « سامهلهما خمس دقائق . أيضاً ، ولأن انتظر أكثر من ذلك » .

كنت أفكر أيضاً بأن مارتان لم يعد شاباً . إنه يحب زوجته بإخلاص . ويعيش ، إن صح القول ، حياة زوجية في غاية الرصانة . هذه هي الحقيقة . وفوق هذه الحقيقة ، على مستوى الوهم الساذج والمؤثر ، يستمر شباب مارتان ، الشباب القلق ، مضطرباً ومسروراً ، ومقتصرراً على لعبة بسيطة لم تفلح بعد في تجاوز مضمار ملعبه لكي تبلغ الحياة وتغلو واقعاً . ولأن مارتان هو الفارس الأعمى للضرورة ، فإنه يحول مغامراته إلى لعبة بريئة ، وحتى دون أن ينتبه لذلك ، ويتابعها بكل جوارحه .

كنت أقول لنفسي : حسناً ! إن مارتان سجين وهمه ، لكن أنا ؟ لماذا أساعده في هذه اللعبة المضحكة ؟ أنا من أعلم أن كل ذلك ليس إلا خديعة الست أيضاً مضحكاً أكثر من مارتان ؟ لماذا التظاهر بترقب مفامرة حب في حين أنني أعلم تماماً بأن ما يمكنني انتظاره على الأكثر هو إضاعة ساعة ، فاشلة سلفاً ، مع امرأتين مجهولتين ولا مباليتين ؟

عندئذ شاهدت في المرأة الشابتين تعبران سور المشفى . كنت أميز رغم تلك المسافة بريق المسحوق والحمرة على الوجنتين ، وكأنتا ترتديان

بإناقة صارخة وبالتأكيد ارتبط تأخرهم بلباسهن المتكلف جداً . أخذتا
تلتفتان حولهما وتجهان إلى سيارتنا .

« قلت متظاهراً بعدم رؤية القتاتين : والأسفها يا مارتان . انقضت
الربع ساعة . لننتقل » وضغطت على دواسة البنزين .

التقدم :

كنا على وشك الخروج من مدينة ب . . . ، نعبّر المنازل الأخيرة ،
ونتوغل في مشهد الحقول والأشجار ، مع الشمس الغاربة فوق المرتفعات .
كنا ساكتين .

كنت أفكر في يهوذا الاسخريوطي الذي قال كاتب خفيف الدم انه
خان المسيح لأنه كان يؤمن به إيماناً لا نهائياً ، وأنه لم يطق صبراً على
انتظار المعجزة التي سيظهر المسيح بها قدرته الالهية لكل اليهود ، لذلك
أسلمه إلى جلاديه حتى يرغمه على الإسراع . خانه لأنه كان يريد تعجيل
سلعة انتصاره .

كنت أحدث نفسي : للأسف ، حين خنت مارتان ، فلأنني على
العكس من ذلك ، انقطعت عن الإيمان به (وبقدرة الالهية في سباقه إلى
الفتيات) ، إنني هجين دنيء من يهوذا الاسخريوطي وتوما الذي يدعى
الشكاك .

كنت أشعر أن ذنبي يزيد من تعاطفي مع مارتان وأن راية الملاحقة
الدائمة للنساء (تلك الراية التي كنا نسمع خفقانها باستمرار فوق
راسينا) تؤثر في درجة البكاء . وبدأت الوم نفسي على تهوري .

هل سأفلح حقاً ذات يوم بالتخلي أنا أيضاً عن تلك التصرفات التي
تعني الشباب ؟ وماذا بوسعي أن أفعل غير تقليدها ، ومحاوله العثور
في حياتي الحكيمة على أرض صغيرة مستجيبة لأجل هذا النشاط الأخرق؟
وما أهمية أن يكون كل ذلك لعبة عابثة ؟ ما أهمية أن أعرف ذلك ؟ وهل
سأقلع عن تمثيل الدور لأنه بكل بساطة علبت ؟

تفاحة الشهوة الأزلية الذهبية :

- كان مارتان بجانيبي على مقعده وكان غيظه يتلاشى بهدوء .
- « قال لي : اسمع ، هل حقاً صاحبتك طالبة الطب من صنف رفيع ؟
- أخبرتك بذلك . من صنف زوجتك جورجيت » .
- طرح مارتان علي أسئلة أخرى . اضطررت أيضاً أن أصف له طالبة الطب .
- ثم قال : « ربما يمكنك أن تمررها لي فيما بعد ؟ » .
- أردت أن أكون مقنناً : « أخشى أن يكون هذا صعباً . قد يزعمها ذلك لأنك صديقي . لديها مبادئ ...
- لديها مبادئ ... » ردد مارتان بحزن ، ورأيت بوضوح أنه يأسف لذلك .
- لم أكن أريد إيلامه .
- « قلت : إذا تظاهرت بعدم معرفتك . ربما يمكنك اعتبار نفسك شخصاً آخر
- فكرة جيدة ! مثلاً ، اعتبرني فورمان ، مثل اليوم .
- لا يهمها المخرجون . إنها تفضل الرياضيين .
- قال مارتان : لم لا ؟ كل شيء ممكن » وغدونا من جديد في غمرة النقاش . كان الاتفاق يتضح رويداً رويداً ، ويوشك أن يتمايل لناظرينا في المساء الذي بدأ بهبط ، مثل تفاحة جميلة ياقئة ومشعة .
- اسمحوا لي أن اسمي تلك التفاحة ، بشيء من الفصاحة ، تفاحة الشهوة الأزلية الذهبية .

لعبة الأوتو - مستوب *

* الأوتو - مستوب : استيقاف سيارة بمقبرة على الطرق العامة بالانتقال بها مجاناً .

اتزلق مؤشر عداد المبنيين فجأة نحو الصفر فقال السائق الشاب بأن ماتستهلكه هذه السيارة أمر غير محتمل . وعلقت الفتاة (السالفة من العمر اثنين وعشرين عاماً تقريباً) : « المهم أن لا نتعطل بسبب الوقود مثل المرة الماضية » وذكرته بأماكن عدة حدث فيها ذلك . أجابها الشاب بأنه ليس قلقاً من ذلك ، لأن كل ما يحصل له ورفقتها له سحر للمغامرة . لم تكن الفتاة موافقة على هذا الرأي : فعندما كانا يتعطلان بسبب الوقود في أرض مكشوفة ، فإن المغامرة إذا صدقناه تكون دوماً لها ولها وحدها ، لأنه كان يختبئ بينهما كان يجب عليها استخدام وإساءة استخدام مفاتيحها الأتوماتية : تنادي سيارة وتجعلها تقلعها إلى أقرب محطة وقود ، ثم توقف سيارة أخرى وتعود بالصفحة . علق الشاب بأن السائقين الذين كانوا ينقلونها بجوارهم كانوا سمجحين ولا بد حتى تتكلم عن مهمتها كأنها سخرة أجابت الفتاة (بفتح كح) أنهم كانوا أحياناً جليبين جداً لكن قلما كان يوسعها الإفادة من ذلك ، لأنها تكون مرتبكة بالصفحة ومضطرة لمغادرتهم دون أن يتاح لهما الوقت للقيام بشيء . قال : « غولة » . أجابته بأنه إذا كان يوجد غول فإنه هو . والله أعلم كم من الفتيات كن يستوقفنه على الطريق عندما كان يعضى وحيداً ! وبينما كان يتود ، احتضن كنفها ومنحها قبلة على جبهتها . كان يعلم أنها تحبه وتغار عليه . والغيرة ليست سمة الطبع الانثوي جداً ، لكن إذا تجنب المرء المغالاة فيها (إذا تراقت بالتواضع) فإن فيها رغم كل مساوئها شيئاً ما مؤثر . كان يفكر بذلك على كل حال . ولأنه لم يكن يبلغ من العمر الا ثمانية وعشرين عاماً ، فقد كان يظن نفسه كهلاً ويتصور أنه يعرف عن النساء كل ما يمكن لرجل أن يعرفه عنهن . وما كان يحبه في الفتاة الجالسة بجانبه هو بالضبط ما وجدوه حتى الآن نادراً في النساء : البراءة .

أصبحت الإبرة على الصفر حين شلهد على يمين الطريق لوحة تشير إلى وجود محطة وقود على بعد خمسمائة متر . وما كادت تعلن عن شعورها بالإرتياح ، حتى أضاء الفماز اليساري وصعد فوق المنبسط الترابي أمام مضخات الوقود . لكن سيارة ضخمة ذات خزان كبير كانت واقفة أمام المضخات وتملؤها بواسطة انبوب غليظ . قال : « يا للصدفة السيئة » ونزل . هتف لعامل المضخة : هل سيستغرق ذلك طويلاً ؟ - دقيقة - دقيقة ، هذا معروف « كان يريد الجلوس ثانية في السيارة ، لكنه تبين أن الفتاة نزلت من الباب الآخر . قالت له : « أمددني . - فسألتها قصداً لكي يجرعها : إرن تذهبين ؟ » مضى عام على تعارفهما ، لكنها كانت مازال تصل إلى درجة الإحمرار خجلاً أمامه وكان يحب كثيراً لحظاتها خيائياً ، لأنها تميزها أولاً عن النساء اللواتي إليهن قبلها ولأنه يدرك ثانياً قانون الزوال الكلي الذي يجعل حياة صديقته ثميناً بالنسبة له .

٢

كانت الفتاة تكره واجب التوسل إليه للتوقف أمام غابة أشجار صغيرة (غالباً ما كان يسير لعدة ساعات بلا انقطاع) . كانت تغضب دائماً من الدهشة المتكلفة التي يسألها بها عن السبب . كانت تعلم أن حياتها مشيرة للسخرية وقليل الطراز . تأكدت من ذلك مراراً في عملها ، حيث يسخر الناس منها ويثيرونها عمداً بسبب حشمتها . ودوماً كانت تحذر سلفاً من فكرة أنها ستحمر . كانت ترغب بأن تشعر بالراحة في جسدها ، دون هم أو قلق ، مثلما يتاح ذلك للعظم الفتيات اللواتي تحاذين . بل إنها ابتكرت ، من أجل استعمالها الشخصي ، أسلوباً مزيلاً للاقناع الذاتي : كلت تردد أن كل كائن أنساني يتلقى عند ولادته جسداً من بين الملايين من الأجساد الأخرى المعدة للأخذ ، كما لو أنه يُمنَح منزلاً شبيهاً بملايين المنازل الأخرى في مجمع سكني كبير ، وأن الجسد إذا شيء طارئ ولا شخصي ، وهو ليس سوى سلعة مستعارة ومصنعة . هذا ما كانت تردده بكل التنويعات المحتملة ، لكن دون أن تتمكن من ترسيخ هذا الأسلوب بالإحساس في ذهنها . كانت ثنائية الروح والجسد غريبة عنها . كانت تنهض كثيراً في جسدها كي لا تشعرها هذه الثنائية بالقلق .

كانت تشعر بهذا القلق حتى إلى جانب الشاب ؛ كانت تعرفه منذ عام وتشعر بالسعادة لأنه بالتأكيد لم يميز مطلقاً بين جسدها وروحها للدرجة أنه كان يوسعها العيش معه جسداً وروحاً . كانت السعادة تراودها من غياب هذه الثنائية ، لكن ليس ثمة مسافة كبيرة بين السعادة والشك وكانت مفعمة بالشكوك . فعلى سبيل المثال كانت تقول لنفسها غالباً أنه توجد نساء أخريات أكثر إغراء (وهن دون قلق) وأن صديقها الذي يعرف هذا النموذج من المرأة ولا يخفي ذلك عنها سيتركها ذات يوم من أجل إحداهن . (طبعاً كان الشاب يعلن بأنه تعرف على ما يكفي منهن ، هكذا من أجل إيمانه القادرة ، لكنها كانت تعرف أنه أكثر شباباً مما كان يظن هو نفسه) كانت تريد لنفسها كلياً وتريد نفسها له كلياً ، لكنها كلما سعت أكثر لإعطائه كل شيء ، كلما تزايد إحساسها بأنها تضن عليه بما يمنحه حب ظاهري وسطحي وبما يمنحه الغول . وكانت تلوم نفسها لعدم قدرتها على الجمع بين الجدية والخفة .

لكنها يومئذ لم تتألم ولم تفكر بشيء من هذا القبيل . كان يوم عطلتها الأول (عطلة الخمسة عشر يوماً التي كانت على مدار العام نقطة التقاء رغباتها) والسمة زرقاء (كانت تتسائل على مدار العام فيما إذا كانت السماء زرقاء حقاً) وكان برققتها . بعد أن سأله « أين انت ذاهبة ؟ » احمرت وانطلقت راكضة دون أن تنبث بكلمة . التفت حول محطة الوقود التي توجد على حافة الطريق في أرض منبسطة ومكتشوفة ، وكانت بمثابة غابة على بعد مائة متر (في الاتجاه الذي يترتب عليهما ارتياده بعد ذلك) فانطلقت في هذا الاتجاه واختفت وراء دغلة مستسلمة لشعور بالراحة . (وحتى الفرح الذي يسببه حضور المحبوب ، لا بد للمرء أن يكون وحيداً لكي يشعر بغيضه) .

ثم خرجت من الغابة وعادت إلى الطريق ؛ ومن المكان الذي ألفت نفسها فيه ، راحت تشاهد المحطة ؛ بينما بدأت سيارة الصهرج الضخمة

تفادر الآن . تقدمت السيارة نحو العمود الأحمر لمضخة الوقود . أخذت تتمشى على امتداد الطريق ؛ وبالكاد تلفتت من حين لآخر كي ترى فيما إذا وصل . شاهده أخيراً ؛ فتوقفت وأخذت تشير له ، كما تشير مستوقفة لسيارة عابرة . فرملت السيارة ووقفت بمحاذاتها تماماً . ملأ الشاب نحو زجاج النافذة وأنزله ، ثم ابتسم وسأل : « أين أنت ذاهبة يا آنسة ؟ وأستعلمت الفتاة بدورها بابتسامة دلال : — هل أنت ذاهب إلى بيستريكا ؟ فقال وهو يفتح الباب : اصعدي ، أرجوك » فصعدت وانطلقت السيارة .

٣

كان الشاب يسر دائماً لرؤيتها مبتهجة ؛ وهو ما كان يحدث نادراً : كان عملها شاقاً (جو مقبى ، ساعات عمل إضافية كثيرة بدون تعويض) وفوق ذلك أم مريضة في المنزل ؛ وبسبب إرهاقها في أغلب الأحيان ، كانت تفقد هدوءها وينقصها الإطمئنان وترزح بيسر تحت وطأة الخوف والقلق . كان يقابل إذا كل دلالة فرح من جهتها بالاهتمام اللطيف للأخ البكر . ابتسم لها وقال : « إنني محظوظ اليوم . أقود منذ خمس سنوات ولم انقل بجائبي مطلقاً مستوقفة بمثل هذا الجمال » .

كانت الفتاة تتلقى بامتنان أقل مديح من صديقها ؛ ولكي تحتفظ بشيء من ذم ذلك ، قالت :

« إنك تتقن الكذب .

— هل أبدو كاذباً ؟

— قالت : يبدو أنك تحب الكذب على النساء » وتظل كلامها بدون حللها شيء من قلقها القديم ، لأنها كانت تعتقد حقاً بأنه يروق لصديقها الكذب على النساء .

كان يغضب عادة من نوبات غيرة صديقه ، لكن تبسر له يومئذ ان لا يعيرها اهتماماً لأن هذه العبارة لم تكن موجهة إليه بل إلى سائق مجهول . اكتفى بطرح سؤال تافه : « هل يزعلك هذا ؟ »

— قالت له : لو كنت صديقك لأزعجني هذا « وكان هذا درساً أخلاقياً لطيفاً من أجل الشاب ؛ لكن نهاية العبارة لم تكن موجهة إلا للسائق الغريب : « هذا لا يزعجني ما دمت لا أعرفك » .

— تغفر المرأة دوماً يبسر لغريب أكثر من صديقها (ولكن هذا درساً أخلاقياً لطيفاً يوجه بدوره إلى الفتاة) « إذا بوسعنا التفاهم ما دمتنا غريبين أحدهنا عن الآخر » .

تظاهرت بعدم إدراك الفارق التعليمي المضمّر في هذه الملاحظة وقررت ألا تحدث بعد إلا السائق الغريب . « وبماذا يفيدنا هذا ما دمتنا سنفترق بعد بضعة دقائق ؟ »

— سالها : لماذا ؟

— أنت تعلم جيداً أنني سأنزل في بيستريكا .

— وإذا نزلت معك ؟ »

عند هذه الكلمات ، رفعت بصرها إلى الشاب وتأكدت أنه غداً تماماً مثلما كانت تتصوره في ساعات غيرها الأكثر إلحاحاً ؛ وأصبحت تخشى من هذا الللال الذي يحادثها به (هي المستوقفة المجهولة) والذي يجعله مغرباً جداً . أجابت إذاً بوقاحة مثيرة :

« اتسلسل عما ستفعل بي ؟ »

— قال بلطف : لن أحتاج لكثير من التفكير كي أعرف ما سأفعله بفتاة في مثل هذا الجمال « وهذه المرة أيضاً كانت الفتاة أكثر من شخصية المستوقفة .

كانت هذه الكلمات اللطيفة بالنسبة لها بمثابة ضبطها له متلبساً بالجريمة ، وكاعترافٍ منتزع بخدمة بلعة ؛ فأحست أن شعوراً مفاجئاً وخاطفاً بالحقد يستولي عليها وقالت : « إنك تتوهم ! »

راح يراقبها : صار وجه الفتاة العنيد متشنجاً ؛ ف شعر حيالها بشفقة غريبة وتمنى أن يعثر ثائية على نظرتها المألوفة والآنيسة (التي كان يقول منها بأنها بسيطة وطفولية) ؛ مال نحوها وضم كتفيها وثقوه اسمها بركة راضياً إلفاء اللعبة .

لكنها تخلصت منه وقالت : إنك تتسرع قليلاً ! »

— قال مبتعداً عنها : المعذرة يا آنسة « ثم ركز انتباهه على الطريق دون أن ينبث بكلمة .

٤

تخلت الفتاة عن هذه الغيرة بالسرعة التي خضعت لها فيها . كان لديها ما يكفي من العقل السليم لكي تعلم أن كل ذلك ليس سوى لعبة ؛ وأخذت تشعر بنفسها مثيرة للسخرية قليلاً لأنها أبعدت صديقها عنها في غمرة الغيرة ، ولم تكن ترغب أن يلاحظ ذلك . كانت تتمتع لحسن الحظ بمقدرة خارقة على تغيير اتجاه تصرفاتها بالتالي ، وقررت بأنها لم تبعدة بسبب الغيظ ، لكن وحسب كي تستمر اللعبة التي كان عدم الاكتراث بها يتناسب تماماً أول يوم من المعطلة . .

إذا أصبحت من جديد المستوقفة التي أبعدت لتوها السائق الجريء جداً ، ولكن لكي تؤخر الغزو فقط وتمنحه نكهة أكثر . التفتت نحوه بخفة وقالت بصوت ملاطف : « لم أكن أريد إيلامك يا سيدي

— قال : اعذريني ، لن المسك ثائية » .

كان يحقد عليها لأنها لم تفهمه ولأنها رفضت أن تغدو هي نفسها حين كان يرغب بذلك ؛ وبما أنها أصبحت مصممة على الاحتفاظ بقناعها، صب غضبه ثاقبة على المستوقفة المجهولة التي كانت تمثلها ، حينذاك ، اكتشف فجأة شخصية دوره : تخلى عن ملاطفاته التي كانت وسيلة ملتوية لإسعاد صديقه ، وأخذ يمثل دور الرجل الذي يشدد في علاقاته بالنساء على المظاهر الرجولية العنيفة : الإرادة والوقاحة والثقة .

كان هذا الدور مناقضاً تماماً للاهتمام المجنون الذي كان يشعر به حيال الفتاة . صحيح أنه أظهر لباقة أقل مع النساء قبل أن يتعرف عليها ، لكن لم يكن فيه حتى ذلك الحين شيء من الرجل القاسي والشيطاني ، لأنه لم يكن يتميز بقوة إرادته ولا بقياب هواجسه . مع ذلك ، إذا لم يكن يشبه هذا النوع من الرجل ، فقد رغب فيما مضى بمشابهته .

إنها بالتأكيد رغبة ساذجة قليلاً ، لكن ماذا يفعل بها : الرغبات الصبيانية تغلت من كل شراك النفس الراشدة وتقاومها أحياناً حتى بلوغ الشيخوخة النائية . وتنتهز هذه الرغبة الصبيانية الفرصة لكي تتجسد في الدور الذي يعرض عليها .

كل المدى الساخر للشباب يوافق الفتاة : كان يحرقها من نفسها . لأنها كانت هي نفسها الفتاة في البداية . وحلماً كف صديقها عن إظهار مواهبه كفوا لكي لا يبيدي إلا وجهه الحارم ، هذات غيرتها . كان يمكنها تناسي نفسها والانغماس في دورها .

دورها ؟ أي دور ؟ دور مستمد من الأدب المرديء . كانت قد أوقفت السيارة ، ولم يكن هذا لكي تذهب إلى أي مكان ، بل من أجل إغواء الرجل الجالس خلف المقود ؛ فلم تكن المستوقفة إلا غلوية وضيعة

تحسن استخدام مفاتها على نحو رائع . اندست الفتاة في جلد هذه الشخصية الروائية يسر فاجأها هي نفسها .

هكذا كانا متجاورين : سائق ومستوقفة ، كلاهما مجهولان .



وأكثر ما كان يأسف الشاب لعدم وجوده في الحياة ، هو الاملبالة . كانت طريق حياته مرسومة بدقة صارمة: كان عمله يستغرق أكثر من ثماني ساعات يومياً ؛ ويقضي بقية نهاره في السأم الإلزامي للإجتماعات والدراسة في المنزل ؛ وكان يشبع من خلال نظرات زملائه الكثيرين حتى الوقت التافه من حياته الخاصة التي لم يواظب على اخفائها في أي وقت والتي أصبحت مراراً موضوع ثروات واجتماعات علنية ، لم يكن حتى أسبوعاً العطلة ذاتهما يزودانه بأي شعور بالخلص أو المغامرة ، كان هنا ايضاً يسود الشبح الباهت للتخطيط الدقيق ، وبسبب قلة المساكن المخصصة لقضاء الاجازات ، اضطر لأن يحجز قبل ستة أشهر حجرة في التاترا ، وقد احتاج من أجل ذلك إلى توصية من اللجنة التقايبية للمشروع الذي يعمل فيه ، اللجنة التي لم تكن روحها المواظبة تتوانى للحظة من متابعة تصرفاته وحركاته .

انتهى إلى الإقرار بذلك كله ، لكن كان يعتريه أحياناً وهم رهيب لطريق تلاحقه عليها انظار الجميع ، دون أن يستطيع التنحي عنها طلقاً . انبثقت هذه الرؤية في هذه اللحظة بالذات ، وفي انقطاع غريب ، اختطت عليه الطريق المتخيلة بالطريق الحقيقية التي يسير عليها ، فقلاده هذا التداعي الغريب والتقصير للأفكار إلى شلوذ مفاجيء .

« إلى أين قلت أنك ذاهبة ؟

— إلى بيستريكا .

— وماذا ستفعلين هناك ؟

— لندي موعد .

— مع من ؟

— مع سيد .

كانت السيارة تصل بالضبط إلى مفترق طريق فسيح ، أبطأ الرجل
سرعته ليتبين لافتات الارشاد ، ثم اتجه إلى اليمين .

« ما الذي سيحدث إن لم تذهبي إليّ موعدك ؟

— ستكون مسؤوليتك ، وسيترتب عليك الاهتمام بي .

— ألم تلاحظي أنني سلكت طريق نوفي زامكي ؟

— حقاً ؟ لقد فقدت رشذك !

— قال : لا تخشي شيئاً ! سأهتم بك .

واكتسبت اللعبة في الحال صفة جديدة . لم تكن السيارة تبعد من
من الهدف المتخيل وحسب — بيستريكا — بل عن الهدف الحقيقي أيضاً
الذي كانت قد سلكت من أجله الطريق في الصباح نفسه : جبال التاترا
والحجرة المحجزة . أصبح الوجود الممثل يتعدى على الوجود الحقيقي .
وصار الشاب يتعد في آن معاً عن نفسه وعن الطريق الصارمة التي لم
يحد عنها أبداً من قبل .

اندهشت : « لكنك قلت لي بأنك ذاهب إلى التاترا ؟

— أنا ذاهب إلى المكان الذي يطو لي يا أفسه . إنني رجل حر
وأفعل ما أشاء وما يعجبني » .

كان الليل قد بدأ يحل حين وصلا إلى نوفي زامكي .

لم يكن الشاب قد ارتادها من قبل ، واحتاج إلى فترة مديدة للإستئلال . توقف مراراً لكي يسأل المارة عن مكان الفندق . كانت الشوارع محفرة ، واستغرق ما ينوف على الربع ساعة للوصول إلى الفندق بعد عدة دورات وانعطافات مع انه قريب (كما قالت إرشادات المارة) . لم يكن الفندق جذاباً ، ولكنه كان الوحيد في المدينة وكان الشاب متعباً من السير . قال : « انتظريني هنا » وغادر السيارة .

أصبح ثلثية هو نفسه ، بعد مغادرته . كان يزعجه أن يلقى نفسه على حين غرة في مكان غير متوقع تماماً ، خصوصاً وأن أحداً لم يرغمه عليه وأنه هو نفسه لم يكن يريد ذلك . وكان يلوم نفسه على مبالغته ، ثم عزم على مداراة قلقه : ستنظر الحجرة في التاترا إلى اليوم التالي ، وأي سوء يوجد في الاحتفال بهذا اليوم الأول من الإجازة بشيء مما هو غير متوقع ؟

اجتاز قاعة الطعام العاشقة بالدخان والمزدحمة والصاخبة وسأل عن مكتب الاستقبال . أشاروا له إلى آخر الردهة عند أسفل الممرج ، حيث تصدرت شقراء تحت لوحة مقفلة بالمفاتيح ، وحصل بصعوبة على الغرفة الشاغرة الأخيرة .

حين أصبحت الفتاة أيضاً وحيدة تخلت من دورها . لكنها لم تكن غاضبة من تغيير خط السير . كانت من الإخلاص لصديقتها بحيث لم تكن تضع موضع الشك شيئاً مما كان يفعله ، وكانت تهيه بثقة سلطات حياتها . ثم تخيلت أن فتيات أخريات ممن صادفهن خلال أسفاره انتظرنه في السيارة كما تنتظره فيها الآن . والغريب في الأمر أن هذه الفكرة لم تكن تؤذيها ، أخذت تبتسم ، كان يبدو لها جميلاً أن تغدو هذه المرة تلك القريبة ، تلك الغريبة غير المسؤولة والواقعة ، وواحدة من هؤلاء

الولائي كانت تغار منهم كثيراً ، كانت تظن أنها بذلك تسحب البساط من تحت أقدامهم ، بعد أن وجدت الوسيلة للإستيلاء على أسلحتهم ، وتهب صديقها أخيراً ما لم تكن قد عرفت بعد أن تعطيه إياه : الطيش واللامبالاة وعدم الإحتشام وكانت تشعر بإرتياح خاص افكرة أنه كان يوسعها وحدها أن تكون كل النساء ، ويوسعها هكذا (وحدها) الإستئثار بكل اهتمام حبيبها ويشغفه الكلي بها .

فتح الشاب الباب وأدخل الفتاة إلى صالة المطعم . مثر على الطاولة الوحيدة الشافرة في زاوية وسط الصخب والقلادة والدخان .



قالت الفتاة بنبرة تحد : « سارى الآن كيف ستهم بي .

— هل ستتناولين مشروباً فاتحاً للشهية ؟

قلما كانت الفتاة ميللة للكحول ، كانت تشرب قليلا من النبيذ وتؤثر البورتو . لكنها أجابت هذه المرة بتصميم : فودكا .

— قال : ممتاز أتمنى ألا تشعلي .

— قالت : ولماذا ؟

لم يجب ونادى النادل ، طلب قدحي فودكا وشريحتي لحم . ثم أحضر النادل بعد لحظة القدحين ووضعهما أمامهما .

رفع قدحه وقال : في صحتك !

— اليس يوسعك إيجاد شيء أكثر طراقة ؟

كان يوجد شيء في لعبة الفتاة قد بدأ يغيظه ، الآن وقد أصبحت بوجهها لوجه ، أدرك أنها إذا كانت تظهر له على أنها فتاة أخرى فليس

هنا فقط بسبب « كلماتها » ، لكن لانها تغيرت تملأ في حركاتها. وفي
إيمائيتها ، ولانها كانت تشبه بدقة مؤسفة ذلك النموذج من المرأة الذي
خبره جيداً والذي كان يشعره بإشمئزاز طفيف .

بل إذا نخبه (وهو يمسك قدحه بيده الممدودة) : « حسناً ،
لا اشرب في صحتك بل في صحة صنفك الذي يجمع عيوب الإنسان بأسمى
صفات الحيوان .

— سألت : عندما تتكلم عن صنفي ، هل تعني جميع النساء لا

— لا ، فقط اللواتي يشبهنك .

— على أية حال ، لا أجد مقارنة المرأة بالحيوان ظريفة جداً .

رد وهو ما يزال يمسك القدرح بيده : لن اشرب اذا في صحة
إشبهاك بل في صحة روحك ، فهل انت موافقة ؟ في صحة روحك
التي تتقد حين تهبط من الرأس إلى البطن والتي تخذ حين تصعد
ثانية من البطن إلى الرأس » .

رفعت قدحها : « موافقة ، في صحة روحي التي تهبط إلى بطني

— قال : أيضاً تعديل طفيف ، لنشرب بالأصح في صحة بطنك
الذي تهبط إليه روحك .

— قالت : في صحة بطني « وبنا على بطنها (حين أشار اليه
باسمه) أنه يستجيب للنداء ، صارت تشعر بكل ميليمتر من بشرته .

ثم احضر النادل شريحتي لحم . طلبا قدحي فودكا مرة ثانية وماء
غازياً (شربا هذه المرة في صحة نهدي الفتاة) واستمر الحديث بلهجة عابثة
على نحو غريب . أخذ يفتاظ أكثر فأكثر لرؤيته إلى أي مدى غدت

صديقته تحسن السلوك كإمرأة طائشة ، فراح يقول لنفسه : ما دامت تعرف جيدا كيف تصير هذه الشخصية ، فلانها هي شخصيتها حقا ، في الحقيقة لم تكن روح سواها المتدفقة من مكان ما هي التي تتسلل إلى تحت جلدها ، بل كانت روحها نفسها التي تجسدها هكذا ، أو على الأقل جزء منها كانت تحافظ عليه عادة مسجوناً ، لكن التلرع باللعبة جعله يفلت من قفصه ، فقد كانت بالتأكيد تظن أنها تتنكر وهي تمثل هذه اللعبة ، لكن ألم يكن الأمر على العكس تماماً ؟ ألم تكن هذه اللعبة هي التي تعيدها إلى نفسها ؟ والتي تحررها ؟ لا ، فإمامه لم تكن توجد امرأة أخرى في جسد صديقته ، بل كانت صديقته تماماً ، هي نفسها ولا واحدة سواها . أخذ ينظر إليها بنفور متزايد .

لكن ذلك لم يكن نفوراً فقط . فكلما بدت له غريبة عقلياً أكثر كلما صار يشتهيها جسدياً أكثر ، فغربة الروح قرّنت جسدتها كإمرأة ، وبالأحرى ، هذه الغربة جعلت أخيراً من هذا الجسد جسداً كما لو أن هذا الجسد لم يكن موجوداً بالنسبة له حتى ذلك الحين إلا في ضباب التعاطف والوجد والاهتمام والحب والانفعال ، كما لو كان ضائماً في هذا الضباب (أجل ، كما لو كان الجسد ضائماً !) وكان الضباب بحسب أنه يرى جسد صديقته لأول مرة .

بعد قدح الفودكا الثالث الممزوج بالمياه الغازية ، نهضت وقالت بابتسامة دلال : « املرني

— هل يمكنني أن أسألك أين انت ذاهبة يا آتسة ؟

— لأبول ، بعد إذنك » وانسلت بين الطاولات نحو الستارة المخملية آخر المطعم .

٨

كانت الفتاة مسرورة لانها تركته كالدهول من هذه الكلمة — غير المؤذبة طبعاً — لكن التي لم يكن قد سمعها تنفوه بها أبداً ، فلم يكن

شيء في رأيها يعبر عن شخصية المرأة التي كانت تجسدها أفضل من التفخيم المنصب بدلال على هذه الكلمة ، أجل ؛ أصبحت مسرورة وبحالة ممتازة ، فاللعبة صارت تسحرها وتزودها بأحاسيس جديدة تماما : على سبيل المثال الاحساس بلا مبالاة غير مسؤولة .

شعرت فجأة بنفسها مرتاحة تماما ، هي التي كانت تخشى اللحظة الآتية . كانت حياة المرأة الأخرى هذه التي ألقت نفسها مستغرقة فيها بغتة ، حياة بلا حياة وبلا تحديدات سلوكية ، بلا ماضٍ ولا مستقبل وبلا التزام ؛ كانت حياة حرة على نحو استثنائي . وبعد أن أصبحت المستوقفة ، غدت قادرة على كل شيء ؛ كان كل شيء مسموحاً لها ؛ كل قول وكل فعل وكل شعور .

لاحظت وهي تجتاز القاعة بأن الناس كانوا يراقبونها من كل الطاولات ، وهذا أيضا كان إحساسا جديدا لم تكن تعرفه : اللذة الفاجرة التي كان جسدها يزودها بها . وحتى الآن لم تتمكن إطلاقا من التحرر تماما من المراهقة ذات الأربعة عشر عاما التي تخجل من نهديها وتشعر بإحساس البلاء المقيت لفكرة انهما سيبرزان على جسدها ويصبحان مرتبين . ومع أنها كانت فخورة بكونها جميلة وذات قد رشيق ، فقد كان الحياء يصحح هذا الزهو مباشرة : كانت تشعر كثيرا بأن الجمال الانثوي يؤثر أولاً بقدرته على الإثارة الجنسية وكان هذا بالنسبة لها شيئا مقيتا ؛ وكانت تمنى أن لا يتوجه إلى جسدها إلا الرجل الذي تحبه ؛ وعندما كان الرجال ينظرون إلى صدرها في الشارع ، كان يبدو لها بأن تلك النظرات تدنس شيئا من حميميتها الأكثر سرية التي لم تكن تخص سواها وسوى حبيبها . لكنها غدت الآن المستوقفة ، امرأة بدون مستقبل ، فقد تحررت من سلاسل حبه الرقيقة وبدأت تدرك جسدها بقوة ؛ وكان هذا الجسد يثيرها لا سيما وأن النظرات التي كانت تراقبها كانت غريبة جدا عنها .

كانت تمر قرب الطاولة الأخيرة حين سألها بالفرنسية رجل ثمل بعض الشيء أواد ، بالتأكيد ، التميز بمعرفته للناس : « بكم يا آنسة ؟ » .

فهمت الفتاة ، فأخذت تحذب جلدها وتعيش بشدة كل حركة من حركات وركيها ؛ ثم اختفت وراء الستارة .

- ٩ -

إنها لعبة عجيبة . كانت الغرابة تأتي على سبيل المثال من أن الشاب ولو كان قد تطبع تماما بطبع السائق المجهول ، فإنه ظل مصرا على رؤية صديقه في المستوقفة . وهذا بالضبط ما كان مرهقا ؛ إذ كان يرى صديقه منهكة في إغراء مجهول ، وكان سيء الحظ لحضوره هذا المشهد ، ولرؤيته من كتب ما كانت تبديه وما كانت تقوله حين كانت تخونه (حين ستخونه) ؛ كان له الشرف المفارق بتقديم نفسه طعما لخيانتها .

الأسوأ أنه كان يعبدها أكثر مما كان يحبها ؛ وكان يقول لنفسه دائما بأن الفتاة ليس لها حقيقة إلا في حدود الوفاء والطهارة ، وأنها لم تكن بكل بساطة موجودة بعد هذه الحدود ، وأنها ستكف عن أن تكون هي نفسها بعد هذه الحدود كما يكف الماء عن أن يكون ماء بعد درجة الغليان . وعندما صار يشاهدها تخترق هذه الحدود المربعة برشاقة طبيعية ؛ راح يشعر بالغضب يستولي عليه .

عادت من المغاسل وتدمرت قائلة : « قل رجل لي : بكم يا آنسة ؟

— لا تندهشي ! إنك تبدين عاهرة .

— هل تعلم أنني لا أباي بذلك ؟

— كان عليك البقاء مع ذلك السيد !

— لكنني برفقتك .

— بوسعك اللحاق به فيما بعد ، وليس امامك إلا الاتفاق معه .

— إنه لا يعجبني .

— لكن لن يضايقك مطلقا أن يكون لديك عدة رجال في الليلة نفسها .

— ولم لا ؟ إذا كانوا فتيانا وسيمين .

— هل تفضلين الحصول عليهم واحداً تلو الآخر أم جميعهم سوية ؟

— كلاهما .

بدأت المحادثة تصبح خطره شيئاً فشيئاً ؛ وكانت منزوعة منها قليلا لكن لم يكن بوسعها الاحتجاج . والمرء ليس حرا في اللعبة ، فاللعبة بالنسبة للاعب هي مكيدة . ولو لم يكن الأمر يتعلق بلعبة ، ولو كانا مجهولين ، أحدهما بالنسبة للآخر ، لكانت المستوقفة قد استطاعت منذ زمن طويل أن تشعر بالاهانة وتغادر ؛ لكن ليس ثمة وسيلة للفرار من اللعبة ؛ فليس بوسع الفريق مفادرة اللعب قبل نهاية المباراة ، ولا تستطيع قطع لعبة الشطرنج الخروج من خاناتها على الرقعة، ولا يمكن تجاوز حدود مجال اللعبة . كانت الفتاة تعلم انها ملزمة بقبول كل شيء ، تماما لأنه كان المقصود لعبة . كانت تعلم بانها كلما توغلت في اللعبة، كلما غدت مجرد لعبة ، وكلما كانت مضطرة أكثر على لعبها بانتقياد . ولم يكن يجدي شيئا الاستنجاد بالحكمة وتحذير النفس الطائشة لكي تحافظ على تميزها ولا تأخذ اللعبة على محمل الجد ، ولأنها كانت بالضبط لعبة ، لم تكن النفس خائفة ولم تكن تدافع عن نفسها وكانت تستسلم للعبة كأنها مخدر .

نادى الشاب النادل ودفع الحساب ، ثم نهض وقال : « لنلعب من هنا

— سألته وهي تنظـاهر بدمـ الفهم : إلى أين ؟

— هيا وبدون أسئلة !

— كيف تكلمني هكذا !

— كما أتـكلم مع عاهرة .

— ١٠ —

كانا يصعدان الدرج الباهت الاضاءة ؛ كانت مجموعة من الرجال الثملين قليلا ينتظرون امام المغاسل ، ضمها من الخلف بحيث أمسكت راحة يده بأحد نهديهـا. شاهد الرجال القريبون من المغاسل ذلك ، فأخذوا يلـقون اللعنات . ارادت التخلـص لكنه أرغمها على السكون . قال : « ابقـي هادئة » وهو ما حياه عليه الرجال بتضامن فظ ، موجهين إلى الفتاة بعض العبارات الداعرة . وصلا إلى الطابق الاول : فتح باب الحجرة ووصل قاطع التيسار .

كانت حجرة صغيرة بسريرين مع طاولة وكرسي ومغسلة . أوصد الشاب الباب بالمزلاج والتفت نحو الفتاة . كانت تمكث املـه في هيئة متحدية وفي عينيها شبق وقح . ينظر إليها ويسعى إلى اكتشاف الملامح المألوفة التي كان يحبها بحنان وراء هذا التعبير الشهواني . كان هذا كالنظر إلى صورتين في العدسة نفسها : صورتين متضدتين تبدى إحداهما من خلال الأخرى بشفافية . كانت هاتان الصورتان المتضدتان تقولان له ان بوسع صديـقته ان تحتوي كل شيء ، وان روحها كانت لا متناهية بوحشية ، وأنه كان يمكن للوفـة أن يجد فيها مكانا له كالخيـانة ، والغدر كالبراءة ، والدلال كالحيـاء ، كان يبدو له هذا المزيج الوحشي منفراً مثل تلويح مستودع قمامة . كانت الصورتان المتضدتان تبدylan دائما بشفافية ، إحداهما فوق الأخرى ، وكان الشاب يدرك

— ١١. —

بأن الفرق بين صديقه والنساء الأخريات هو فرق سطحي، وأن صديقه في أعماق كيانها الفسيحة شبيهة بالنساء الأخريات في كل أفكارها وكل مشاعرها وكل العيوب الممكنة، وهو ما كان يسوغ شكوكه وغيرته الخفية، وأن رسم الحدود المعينة لشخصيتها لم يكن إلا وهماً كان يستسلم له الآخر، ذلك الآخر الذي ينظر إليها : أي هو . وكان يبدو له أنها ، كما كان قد أحبها ، ليست سوى ثمرة تفكيره المجرد وثقته ، بينما كانت كما هي حقيقة تمكث هناك ، أمله بوصفها أخرى وغريبة ومتعددة الأشكال على نحو يدفع لليأس . كان يمتقتها .

« ماذا تنتظرين ؟ اخلمي ملايسك ! »

احتنت رأسها بدلال وقالت : « هل هذا ضروري ؟ »

كانت تلك اللهجة توظف في سمعه ذكرى مبهمة ، كما لو أن امرأة أخرى قالت له ذلك منذ زمن طويل ، لكنه لم يعد يعرف من هي . كان يريد أن يهينها ، ليس المستوقفة ، بل هي ، صديقه . وراحت اللعبة تؤول إلى الامتزاج مع الحياة . لم تعد لعبة إهانة المستوقفة سوى حجة لإهانة صديقه . كان قد نسي أنها لعبة . وصار يمتق المرأة المائلة أمامه . راح يتفرس فيها ، ثم أخرج من محفظة جيبه قطعة نقدية من فئة الخمسين كورون وناولها إياها : « هل تكفي ؟ »

أخلت القطعة النقدية وقالت : « لست كريماً جداً »

— قال : لا تستحقين أكثر »

ضمته إليها « إنك تتصرف معي بشكل سيء . يجب أن تكون أكثر لطفاً . حاول ! »

احتضنته وقربت شفتيها من شفتيه . لكنه وضع أصابعه على فمها ودفعها برفق . « أنا لا أقبل إلا النساء اللواتي أحبهن »

- وأنا ، إلا تجبني ؟

- لا

- من تحب ؟

- هل هذا يخصك ؟ اخطمي ملايسك ! »

١١

لم تكن قد تعلمت من قبل هكذا . الحجل والشعور بالذعر والدوار ، بانت تشعر بكل ذلك حين اخذت تطلع ملايسها امام الشاب (ولم يكن بمقدورها المتستر في الظلام) كان كل شيء قد اختفى . وكانت تقف امامه ، واثقة من نفسها ، وقحة ، في غمرة الضوء ، ومندهشة لاكتشافها فجأة الحركات المجهولة حتى ذلك الحين لتعر سحر متمهل . راحت تطلع ملايسها قطعة تلو الاخرى بعناية وهي متنبهة لنظراته ، وتتدق كل مرحلة من هذا التعري .

لكنها بعد ذلك ، حين أصبحت فجأة عارية تماماً امامه ، قالت لنفسها بأنه لا يمكن للعبة ان تستمر اكثر من ذلك ، وانها في تجردها عن ملايسها ، كانت قد ألقت أيضاً قناعها ، وانها أضحت عارية تماماً وهو ما يعني أنها لم تكن إلا هي نفسها وأنه يترتب على الشاب الآن التقدم نحوها والقيام بحركة من يده ، حركة تمحو كل شيء ، وبعدها لن يوجد مكان إلا للداعباتهما الحميمة . كانت إذاً عارية امامه وقد كفت عن اللعب ؛ كانت تشعر بالضيق في نفسها ، وظهرت على وجهها الابتسامة التي كانت تميزها في الحقيقة عن غيرها ، الابتسامة الخجلة والمرتبكة .

لكن الشاب ظل جامداً ، ولم تبدر منه أية حركة لمحو اللعبة . لم يكن يشاهد ابتسامتها مع أنها مألوفة جداً ؛ لم يكن يشاهد امامه سوى

الجسد الجميل المجهول ، جسد صديقته التي بات يفتتها . أخذ الحقد
يفسل شبقه من كل طلاء عاطفي . ارادت الاقتراب منه ، لكنه قال لها :
« ابقى مكانك حتى اراك جيداً » لم يعد يروم إلا امرأ واحداً ، أن يعاملها
كعاهرة . لكنه لم يكن قد عرف عاهرة من قبل والفكرة التي ترعرعت في
ذهنه عنها كانت مستوحاة من الأدب ومما يسمعه . تلك إذا هي الصورة
التي تذكرها ، كان اول شيء رآه : امرأة عارية بثياب داخلية سوداء
ترقص على غطاء البيانو البراق . لم يكن يوجد بيانو في حجرة الفندق ،
لم يكن يوجد إلا منضدة صغيرة مسنودة إلى الحائط ومفروشة بغطاء .
امر صديقه بالصعود إليها . بدرت منها حركة متوسلة لكنه قال :
« لقد دفعت لك » .

إزاء هذا التصميم العنيد الذي كانت تقرأه في نظره ، سعت إلى
متابعة اللعبة ، لكنها لم تعد تستطيع ولم تعد تعرف . صعدت إلى
المنضدة والدموع في عينيها ، وكانت مساحة المنضدة بالكاد تبلغ المتر
المربع ومعوجة القوائم ؛ فكانت تخشى أن تفقد توازنها وهي واقفة عليها .

لكنه كان مسروراً لرؤية هذا الجسد العاري الذي ينتصب
أمامه ، والذي كان يردده المتحفظ يجعله أيضاً مستبداً أكثر . كان يريد
أن يرى هذا الجسد في كل وضعياته ومن جميع الزوايا ، كما كان يتخيل
أن رجلاً آخرين كانوا قد شاهدوه وسيشاهدونه . كان فظاً وداهراً .
راح يقول لها كلمات لم تكن قد سمعته يتفوه بها من قبل . كانت تريد
المقاومة والفرار من هذه اللعبة ، فنادته باسمه ، لكنه أرغمها على
الصمت وهو يقول لها بأنه لا يحق لها أن تكلمه بهذه التبرة الأليفة .
انتهت إلى الاستسلام وهي مضطربة وعلى وشك البكاء . انحنت إلى
الامام ، اقتنعت حسب رغبته ، وقامت بتحية عسكرية ، ثم مشت بخلوة
لتؤدي مشهداً راقصاً ، لكنها زلقت الغطاء بحركة مفاجئة وكادت
تسقط . أمسكها وسحبها إلى السرير .

اتحد بها . وابتهجت لفكرة أن هذه اللعبة البائسة انتهت أخيراً ،
 وأنهما سيصبحان من جديد كما كانا في الحقيقة وكما كانا يتحaban .
 أرادت أن تضغط شفتيها على شفتيه ، لكنه أبعدا ورد بأنه لا يقبل إلا
 النساء اللواتي يحبن . انفجرت بالنحيب . لكنه لم يمكنها حتى من
 البكاء لأن الشهوة الهائلة لصديقها كانت تستولي شيئاً فشيئاً على
 جسدها الذي انتهى إلى خنق أنين روحها . لم يعد يوجد على السرير
 بعد إلا جسدين متحدين تماماً ، شبقين وغريبين عن بعضهما . وما أصبح
 يحدث الآن هو ما خافت منه دائماً أكثر من كل الناس وهو ما تجنبت
 دائماً بقلق : الحب بلا عاطفة وبدون حب . وصارت تعلم أنها اجتازت
 الحدود الممنوعة التي ما بعدها أصبحت تتحرك من الآن فصاعداً دون أدنى
 تحفظ وبمشاركة كلية . بالكاد كانت تشعر في زاوية متوارية من روحها
 بنوع من اللعنة لفكرة أنها لم تشعر من قبل بمثل هذه اللذة ومثل هذا
 القدر من اللذة في هذه المرة — فيما وراء تلك الحدود .

- ١٢ -

ثم انتهى كل شيء . ابتعد الشاب عنها وشد الحبل الطويل الذي
 كان يتدلى فوق السرير ؛ فانطلقا النور . لم يكن يريد رؤية وجهها . كان
 يعلم أن اللعبة انتهت ، لكن لم تكن لديه أية رغبة بالعودة إلى عالم
 علاقتهما المعتادة ؛ كان يخشى هذه العودة . كان يرقد إلى جانبها في
 الظلمة متجنباً كل تماس مع جسدها .

سمع بعد لحظة نحيبها المخنوق ؛ لمست يد الفتاة يده بحركة طفولية
 خجولة ؛ لمستها وسحبتها ، لمستها من جديد ، ثم بدأ صوت يُسمع ،
 متوسلاً : مهديجاً بالنحيب ، يناديه باسمه ويقول : « إني أنا ،
 إني أنا ... » .

ظل ساكناً لا يتحرك وكان يدرك جيداً ميوعة تأكيد صديقه الحزينة
 لنفسها ، حيث كان المجهول يتعين بالمجهول نفسه .

- ١٣ -

وافسحت الانتحابات المجال لبكاء مديد ؛ وظلت الفتاة تردد طويلا
هذا اللغو المؤثر : « انا هي ، انا انا ، انا انا ، انا انا » .

عندئذ بدأ يستغيث بالشفقة (واضطر لماداتها من بعيد ، لانها لم
تكن في مكان ما في متناول يده) كي يستطيع مواساة الفتاة . كان
ما يزال امامها ثلاثة عشر يوماً من الإجازة .

* * *

الفهرس

٥	الدكتور هاقل بعد عشرين عاماً
٣٩	المحاورة
٤١	الفصل الأول :
٤١	قاعة المناوبة
٤٢	تنبيه الدكتور هاقل
٤٢	الدكتور هاقل كالموت يستحوذ على كل شيء
٤٣	النجاح الأعظم للمدير
٤٤	تقرير الحرية
٤٥	مدى المسؤولية
٤٧	تقرير الحب الأفلاطوني
٤٩	الإشارة
٥٠	الشاب الوسيم المعقود الدرامين
٥١	البول

٥٢

الفصل الثاني :

٥٣

الشاب الوسيم الساخر

٥٥

حزن بشكل ردف

٥٦

رقصة التعرى العظيمة

٥٧

كلمات وداع إليزابيث

٥٨

مرافعة المدير ضد فليشتمان

٦٠

الأدوار الميثولوجية

٦٠

نهاية اللبونجوانات

٦٢

إشارات جديدة

٦٣

الفقر

٦٤

ملاحظة بين قوسين

٦٤

طلب التجسدة

٦٥

الفصل الثالث :

٦٥

كل واحد قال شيئاً

٦٥

نظرية فليشتمان

٦٧

نظرية المدير

٦٨

نظرية هافل

٧٠

نظرية الدكتوراة

٧٢

كلن ألمازج يعبق في التفسير الليلي

٧٥	الفصل الرابع :
٧٥	عودة الدكتور
٧٦	اخلاقية هافل
٧٧	المدير المستغلب
٧٨	دفاعاً عن المدير
٧٩	جواب الدكتور
٨١	الفصل الخامس :
٨١	في دوامة المشاعر النبيلة
٨٢	عدم تأكد كل الأشياء
٨٣	ندم هافل
٨٤	نهاية سعيدة
٨٧	فليخزل الاموات القدامى المكان للاموات الجدد
١٠٩	لن يضحك أحد
١٤٩	تفاحة الشهوة الأزلية الذهبية
١٧٣	الأوتو - ستوب

۱۹۹۷/۸/۱۱-۲...



طبع في مطابع وزارة الشقاففة

دمشق ١٩٩٧

في الاصدار المرفقة بالجدول

٣٠٠ ل. ص

سنة النسخة داخل المطبع

١٥٠ ل. ص